

( ) - ( / )

:

( / / ١٤٢١ هـ ؛ وقبل للنشر في ١/٧/ ١٤٢٢ هـ )

. مسامرة لدعوات التنبه إلى انسيابية الحدث التاريخي، أو صيرورة عمل التاريخ بمعنى آخر، يلتمس البحث من القضية المحيطة بإحراز هشام عبدالرحمن الداخل ولاية العهد من أبيه بوصفه نموذجاً قابلاً للتطبيق على مدى الفائدة الناتجة من التعامل مع الوقائع التاريخية بالشمولية الزمنية، وذلك من خلال طرح جوانبها في المحاور التالية:

١- جمع الروايات المتناثرة في المصادر التاريخية دراسة وتحليلاً، ومن ثم محاولة الوصول إلى الأسباب التي أدت بعبدالرحمن إلى الميل نحو ابنه هشام متجاوزاً به أخاه الأكبر سليمان.

٢- استعراض الفوارق الشخصية المدونة عن الأخوين - سليمان وهشام- في الميول والتوجهات والقدرات الخاصة، فضلاً عن متابعة التغيرات المسجلة لدولة الداخل مع تقادم العهد بها، من أجل التماس خطوط توافق بين التوجه الخاص وبين التغيرات العامة للدولة، والخلاصة بأن فوز هشام بالترشيح لم يتأت إلا من خلال توافر قدرات شخصية فيه تتواءم مع مخططات مستقبل دولة عبدالرحمن.

٣- تقويم حكم هشام من منظور الآمال والتوقعات المعقودة عليه، والإقرار بنجاحه فيهما باستعراض الشواهد الدالة عليهما، والخلاصة بأن هشاماً، بتمكنه من السير بدولة عبدالرحمن في طريقها

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

المرجوة وسد نواقصها، قد نجح في إرساء القاعدة التي بنيت عليها دولة الأمويين في الأندلس من بعدهما،  
عبدالرحمن (المؤسس)، وخليفته هشام، في دولة تكامل واحدة.

تتنامي الدعوات بين المؤرخين إلى وجوب التعامل مع الحدث التاريخي بانسيابية تسمح  
لمساره بالتواصل، ومكمن القول هنا أن التعامل الأمثل مع الوقائع التاريخية ينبغي أن  
يتوافر فيه شرط النظرة الشاملة وليس الجزأة، فالنظرة الشاملة هي الوسيلة المثلى لفهم  
التغيرات ورصد المؤثرات والتدقق من الأسباب والنتائج، بينما في المقابل تضيق النظرة  
الجزأة للتاريخ ليس من فهم مسار الحدث فحسب، بل تنفي عنه كل الإيجابيات المرصودة  
من النظرة الشاملة.

لقد عانت المعالجات التاريخية طويلا، في الماضي ولا تزال، من تقطيع وقائعها إلى  
أزمنة السنين والعصور والعهود، وإلى تضيق مسرحها إلى جيوب جغرافية محدودة.  
وحينما انصب الأمر على دراسة الأفراد، تناولت مثل هذه الدراسات الفرد بعيدا عن  
المؤثرات التي ولد وعاش فيها، وبانفصال عن الأوضاع والظروف التي تعامل معها. إن  
الجزئين للتاريخ على هذا النحو، والقاطعين لمدده، يمكن القول بأنهم ضيقوا من الفهم  
الأسلم للتاريخ، كما أنهم بتضييقهم لنافذ الرؤية الواسعة له، ضيعوا على أنفسهم  
وعلى الآخرين سبل الوصول إلى مكامن أسرارهم.

يمكن رصد الضرر الناتج من وضع الحواجز الفاصلة المعوّقة لمسارات التاريخ في  
غير مسألة، وفيما يخص بحثنا هذا، فتمثل قضية انتقال السلطة مثلا واضحا فيها. من  
المنظور العام تبقى القضايا المتعلقة بولاية العهد من القضايا التي تشترط النظرة الشاملة  
لتابعة مسارها، فهي قضية يحكمها التواصل بين العاهد والمعهود إليه، كما تحكمها  
الظروف الداعية لها والنتائج المترتبة عليها، وهي في المقام الأهم تختلف خيوط الربط بين  
عهدين، عهد منصرم وعهد آت وما بينهما من روابط ودواع متحركة.

لكن، وبالرغم من وضوح العلامات الرابطة في قضايا ولايات العهد حين النظر إليها بتمعن، فإن الكتابات التاريخية في كثير من الأحيان غفلت وتجاوزت عن دلالاتها. والإصرار على تقسيم العهود، على فترات من تولوها، أدى في الغالب إلى إهمال الروابط التي تمثل اللب الأساس في القضية، ونتج بالتالي منه إغفال خيوط التواصل، وضرورة الحدث، بوصفه واقعة يضرها القطع والتجزئة. ولكن، وفي مقابل من تعاملوا مع التاريخ بتلك الصفة، فهناك آخرون كانت لهم النظرة الشاملة، ومثالنا في ذلك دراسة عمر سليمان العقيلي المتوافقة في نهجها مع النهج الذي يدعو إليه البحث، وكذلك لملاءمة موضوعها مع موضوع البحث أيضا، وبعنوانها المعبر على نهجها، "أسلوب تعاقب بني أمية على منصب الخلافة وأثره في سقوط دولتهم"<sup>(١)</sup> إن هذه الدراسة، وبالتفاتها إلى قضايا تعاقب ولايات العهد في الدولة الأموية برمتها، رصدت أهمية ولاية العهد ليس عاملا مؤثرا وفعالا للمسار الحداثي فحسب، بل ومن خلال النظر إليها في مساراتها الطويلة التي أمت بالأسباب والنتائج، والتي مكنت العقيلي من خلالها طرح فرضيته، واستخلاص النتائج ليس من حالة منفردة بل من أمثلة متعاقبة.

في الدراسة المعنية، تجنب الباحث أسلوب النظرة المنفردة للأحوال، ونظر إلى مسألة التعاقب الأموي للخلافة نظرة شاملة، وبهذا النهج تمكن من التوصل إلى نتيجة شاملة مفادها، "أن عدم وجود نظام واضح تتحدد بموجبه المعايير لتولي منصب الخلافة أو حتى ولاية العهد عند بني أمية"<sup>(٢)</sup> كان أحد الأسباب الرئيسة لسقوط الدولة. إن النتيجة التي طرحها العقيلي من منظورها الطويل، ودعم بها عموميات الطروحات

(١) عمر سليمان العقيلي، "أسلوب تعاقب بني أمية على منصب الخلافة وأثره في سقوط دولتهم"، مجلة

الدارة، ٢٠، ٣٤ (ربيع الآخر - جمادى الأولى، ١٤١٥هـ)، ٨ - ٣٢.

(٢) العقيلي، "أسلوب"، ١٥.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

المتداولة سابقا، لم تأت في الواقع إلا من خلال النظرة المتعاقبة، والاستناد إلى البراهين المتكررة، ونبذ النظرة إلى الحدث بمعزل عن دوافعه وأسبابه ونتائجه العديدة، واستخلاص النتيجة العامة من خلاصة التجربة الأموية بكاملها.

بحثنا التالي، يدور محوره في قضية محددة تتعلق بولاية العهد من وجهة نظرة أندلسية، وبرغم أن البحث لا يطمح إلى استخلاص نظرية عامة مثل تلك التي طرحتها دراسة العقيلي، ويركز تحديدا على نموذج العاهد بالولاية، وهو عبدالرحمن بن معاوية (الداخل)، والمعهود له بالأمر وهو هشام بن عبدالرحمن (الرضا) بصورة خاصة، إلا أنه مع ذلك لا ينظر إلى النموذجين، بوصفهما حالتين منفصلتين، ولكن بوصفهما حالة واحدة تربطهما عناصر الأسباب والدواعي، كما تربطهما المبررات والنتائج، طارحا من خلال ذلك جملة تساؤلات الهدف منها التماس عناصر الربط والتأثير والتأثر بين الحالتين، لماذا فضل عبدالرحمن بن معاوية ابنه هشام للإمارة من بعده؟ ولماذا بهذا التفضيل تجاوز عن ابنه الأكبر والبكر سليمان؟ ما هي المبررات والمركزات المقنعة التي ركز عليها عبدالرحمن في اتخاذ قراره الحاسم هذا؟ وما هي الشروط التي توافرت في هشام ولم تتوافر لدى سليمان؟ وهل كان الداخل محقا بهذا التفضيل؟ وأخيرا هل كان هشام في محل الآمال والتطلعات التي توخيت فيه، وفي المقابل هل كان الأب في قراره يملك مبررات تجاهل تقليد أموي عُرف، حرص الأمويون عليه طوال حكم دولتهم في المشرق وهو تفضيل الابن الأكبر لتولي العهد؟!

إن التماس المدخل إلى موضوعنا يقودنا بطبيعة الحال إلى قرطبة، قاعدة الأندلس والحكم الأموي. هناك، وفي بضع ليال سابقة لغرة شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين ومائة<sup>(٣)</sup>، كان رأس الأمويين وأمير الأندلس يترقب أيامه الأخيرة وهو على

(٣) يحدد بعض المؤرخين تاريخ وفاة عبد الرحمن الداخل بيوم الثلاثاء لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة، ولعل الأصح باتفاق أغلب المؤرخين، هو غرة جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

فراش مرضه، ومع تجسم شعوره بدنو الأجل، توجب الأمر للأمير المحتضر أن يحصر فكره في أمر من سيولي العهد من بعده، وهو قرار لم يكن قد حسمه بعد، لدولة أقامها " منفردا بنفسه، فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين، ونال ملكا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمته" وهي كلمات اعتراف أتت إلى عبدالرحمن من غريمه اللدود، رأس الدولة العباسية أبي جعفر المنصور. <sup>(٤)</sup> ويلتقط ابن عذارى المراكشي طرف الواقعة، ويورد تفصيل ما حدث قائلا: "وقيل إن عبدالرحمن بن معاوية - رحمه الله - لما حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليمان بطليطلة، وكُل ابنه عبدالله المعروف بالبلنسي وقال له: "من سبق إليك من أخويك فارم إليه بالخاتم والأمر: فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين إليه،" تقدم هشام من ماردة قبل سليمان، فنزل بالرصافة، وخاف من عبدالله أخيه، إذ صار متمكنا من قرطبة والقصر والأموال أن يدافعه. فخرج إليه أخوه عبدالله وسلم بالخلافة، ودفع إليه بالخاتم، كما أوصاه وأدخله القصر." <sup>(٥)</sup>

إن الوصية بصيغتها ومضمونها كما ينفرد ابن عذارى بروايتها، هي في الواقع وصية تدعو إلى الحيرة أكثر مما تدعو إلى الاقتناع والقبول، ويتعزز الشعور هذا بصورة

ومائة، انظر: أحمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، د.ت.)، ٧١.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي برونسفال (تاريخ أسبانيا الإسلامية) (بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٦م)، ٩ - ١٠.

(٥) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق س. كولان وليفي برونسفال (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢: ٦١ - ٦٢.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

أقوى عند الذين يدركون مدى حرص عبدالرحمن على سلامة دولته وتواصلها من بعده ؛ فالوصية تبدو لهؤلاء وكأنها تعكس ما يعرفونه عنه ، فهي تظهره وكأنه غير عابئ بما سوف يفضي إليه الأمر من بعده ؛ فضلا عن تأجيل عبد الرحمن اتخاذ قراره في أمر من سيحكم دولته التي أقامها من بعده إلى فراش موته ، نراه يوصي وهو في تلك الحالة بوصايا لا يمكن الركون إلى سلامتها مطلقا. فخلافة الحكم عنده في هذه الحالة لا تتعدى عن كونها سباقا بين أبنائه ، من يسبق من الأخوين أحدهما الآخر في الوصول إلى قرطبة من مركز ولايته ، هشام من ماردة ، وسليمان من طليطلة ، يحرز الحكم وسيتولى أمر الأندلس من بعد أبيه.

إن تأجيل عبدالرحمن البت في مسألة من يرشح للإمارة من بعده ومن ثم إعلان قراره بالصيغة التي عبرت عنها الرواية تتنافى تماما مع ما يعرفه المتابع لعبدالرحمن. فالمتابع الذي يعرف حرص عبدالرحمن لا يملك سوى التردد من قبول فحوى الرواية ؛ الأمر الذي يدفعه إلى التساؤل : هل يعقل أن يهمل عبدالرحمن أمر البت في تعيين من سيخلفه ويرجئه إلى ساعاته الأخيرة؟ ولكن وحتى في حالة الأخذ بصيغة الوصية ؛ فالسؤال المثار حينه يكون : هل يعقل من عبدالرحمن أن يركن إلى إجراءات غير مضمونة العواقب؟ ألا يعني ذلك أن مؤسس دولة الأمويين في الأندلس سيتوفى وهو لا يعلم من خلفه من أبنائه؟ أولا يعني ذلك أيضا أن عبدالرحمن لم يكن متأكدا من كفاءة أحد الابنين؟ أو لم يكن يعنيه تولي أيهما ، ولكن ألا يؤدي ذلك إلى الظن أيضا بأن عبدالرحمن كان متعمدا هدم كل ما بناه بنفسه ، ويعرض دولته مجددا لأعدائها المتربصين ، والذين حاربهم طيلة فترات حكمه. أولا يعني ذلك أيضا زرع العداوات بين أبنائه ، وفتح الطريق أمامهم للدخول في المنازعات الشخصية لإحراز الحكم؟ وأخيرا ، هل يهمل عبدالرحمن وضع

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

سابقة في تقنين نظام الولاية في دولته الأندلسية الناشئة وهو يدرك تماما أنها ستغدو القاعدة التي سيعمد إليها الأمويون التالون له؟

ولعل مما يضاعف من إشكالية الأخذ بما يرويه ابن عذاري عن قرار عبدالرحمن حيال من يخلفه في حكم الأندلس، أن المصادر التاريخية تعاملت مع الحدث، وصيغة الرواية التي رويت بها، تعاملها مع حدث مقبول، ولم تبد نحوها شيئا من التردد أو تقدم لها رأيا أو تفنيدا. صحيح أن انفراد ابن عذاري بالرواية، وهو متأخر، وغياب الإلماح إليها عند سابقه من المؤرخين الأندلسيين، قد يكون سببا في إغفال المؤرخين أمر هذه الواقعة، أو المرور عليها مرورا عابرا، لكن حتى الذين أتوا من بعد ابن عذاري، وأخذوا الرواية منه، تعاملوا مع فحوى الرواية كما جاءت عنده، وتقبلوا مضمونها دون إبداء وجهات نظر نافذة أو تفسيرية، وبهذا غدت قصة انتقال الحكم من عبدالرحمن إلى ابنه هشام تروى بالتناقل والتكرار كما ظهرت عند ابن عذاري أول مرة، وأصبحت قضية مسلمة بها من بعده.

إن قبول قدامى المؤرخين لرواية ابن عذاري، بوصفها واقعة شارحة لانتقال السلطة من عبدالرحمن لابنه هشام، أدى بالتالي إلى انتقال التعامل ذاته بالقضية من قبل المؤرخين المحدثين؛ فالمحدثون بدورهم لم يضيفوا للأمر جديدا؛ فالآراء التي أبدت حيال القضية من قبل هؤلاء لم تخرج عن تباينات يمكن عرض آرائها على النحو التالي: فريق، ولعل هؤلاء هم الأغلب، سلم بمضمون رواية ابن عذاري، وخلص إلى أن الأمر لا يحتاج إلى اجتهادات تفسيرية جديدة، وبأن هذا هو ما كان،<sup>(٦)</sup> وفريق آخر، استبعد ما جاء في الرواية، وعوضا عنه طرح استنتاجات اجتهادية خالية من دلالات مشفوعة، مما يصعب الأخذ بها أيضا، كقول أحدهم أن عبدالرحمن "فشل في أن يجد حلا جذريا

(٦) عصام عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، د.ت.)، ٧٦.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

لمشكلة ولاية العهد.<sup>(٧)</sup> أما الفريق الثالث، فإنه لم يبد التردد من قبول ما حوته الرواية فحسب، بل أظهر الشك في أن يتعامل عبدالرحمن مع القضية بتلك الصورة، وحالة الشك التي اتصف بها تعامل هؤلاء خلصت بهم إلى التساؤل بأن عبدالرحمن لا يعقل منه أن يترك قضية ولاية العهد بهذه الحالة،<sup>(٨)</sup> وقد استند هؤلاء إلى صعوبة تقبل أن يترك عبدالرحمن مصير دولته على تلك الهيئة الغامضة والمحفوفة بالمخاطر، والبعيدة عن كل ما يمكن الاطمئنان إليه.

أمام هذه المعضلات الناجمة من اعتماد القدامى على رواية ابن عذارى اليتيمة، وتباين مواقف المحدثين التي لا تحوي جديدا، واستنكاف الفريقين معا عن النظر إلى القضية المطروحة بالاهتمام المبتغى، لا يملك البحث سوى طرح خيار ثالث؛ إمّا التوقف هنا على أساس أنه ليس ثمة جدوى من الاستمرار في الخوض فيه والقبول بما قبل به الآخرون، مع التذكير بأن هذا ليس هدف البحث إطلاقا، وإمّا المواصلة فيه وطرح آراء حياله، كما هو الهدف المخطط للبحث أصلا.

يدرك الباحث سلفا أن اختياره المواصلة هو خيار لا يخلو من الصعوبة، إذ أن الموقف الذي يقف فيه خال من البراهين والحجج، وما يلتسمه من الأسباب قد لا يكون موفيا للهدف المطلوب، بيد أن هذا التخوف قد يكون فاتحا لأمر قد يلقي الضوء - وإن

(٧) إبراهيم بيضون، *الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢ - ٤٢٢ هـ/٧١١ - ١٠٣١ م* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٨م)، ٢١٧.

(٨) أيضا كمثال لمواقف هؤلاء، انظر: عبدالواحد ذا النون طه وآخرين، *تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس* (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، د.ت.)، ١٠٢.



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

قل - على هذه القضية الغامضة ، التي ضاعف تعامل المؤرخين معها ، على النحو الذي أشرنا إليه ، غموضها .

إن بصيص الأمل للانفراج من هذا الضيق قد يأتي لربما من تبني البحث لرأي فريق المؤرخين ، الذين أشرنا إليهم بالفريق الثالث ، وهم الذين أبدوا رأيا خاصا بهم . ولقد أوضحنا سلفا أن هذا الفريق يركز موقفه على الجمع بين التردد من قبول فحوى رواية ابن عذاري ، والشك كذلك من أن يكون موقف عبدالرحمن من مسألة تعيينه لولي عهده بتلك الصورة البعيدة عن الحسم . إن حالتي التردد والشك هما دافعان تتولد منهما الرغبة في المزيد من الاستقصاء وطرح البدائل أيضا ، وقد يكون لذات السبب وسيلة مجدية أمام الافتقار لوسائل أخرى . لاسيما عندما تكون الأداة هذه - كما سنرى لاحقا - مدعومة بحقائق استدلالية ، وبراهين معززة لرسم الصورة .

وبهذه المعطيات ، يلتبس البحث مبررات المتابعة للقضية ، مع الاعتراف المسبق ، بأن ما سيطر حه سيكون أقرب إلى جملة من الفرضيات والاستنتاجات ، يستعين في بناء أطرها بروايات مبعثرة أهمل المؤرخون العناية بها ، ليس لسبب آخر سوى أنهم أهملوا أصلا الاهتمام بموضوع البحث هذا ، ألا وهو موضوع انتقال الإمارة الأموية من مؤسسها عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) ، وإلى أول خلفائه ، هشام بن عبدالرحمن ، مع استقصاء المسببات المحركة لها ، والكيفية التي تمت بها ، والوصول بها في آخر الأمر إلى النتائج التي انتهت إليها .

إذا كانت رواية ابن عذاري الواصفة لكيفية انتقال الحكم من عبدالرحمن إلى هشام قد بقيت الرواية التي استأثرت باهتمام المؤرخين ، قديمهم وحديثهم ، على حد سواء ؛ إلا أن تقصي المصادر التاريخية الأخرى بإمعان أبان أن تلك الرواية لم تكن بأي حال الرواية الوحيدة التي سجلها المؤرخون لهذه الواقعة . وقد يكون هناك مبرر لالتماس

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

العذر لهؤلاء، لعدم الاهتداء إليها، فهي في أول الأمر مبثوثة في مواضع متفرقة، بمعنى إشارة هنا، وإلماح هناك؛ فهي على تلك الهيئة، يصعب الاهتداء إليها، ولا يمكن الاستفادة منها إلا عند جمعها على هيئة مترابطة واحدة، فضلا عن ذلك، أن أغلب تلك الروايات، كما سيوضح ذلك لاحقا، تأتي في صيغ تلميح، أو بعبارات غير مباشرة، قد يغفل المرء عنها، إن لم توظف دلالاتها لهدف الموضوع تحديدا.

إن استعراض جملة هذه الروايات، والتي سوف يشار إليها من الآن بـ "الروايات الأخرى"، تميزا لها عن رواية ابن عذاري، تبين أمرا مهما لسياق النقاش الدائر، وهو غلبة التأكيدات بأن عبدالرحمن، كما تؤكد ذلك رواية ابن عذاري، لم يؤجل البت في قراره في اختيار هشام وليا للعهد إلى أيامه الأخيرة، بل تظهر هذه الروايات بأن عبدالرحمن كان قد أظهر حيال هذا الأمر دلائل التوصل إلى قرار يسبق بكثير تلك اللحظات؛<sup>(٩)</sup> فابن الأبار في معرض حديثه عن هشام، يشير مؤكدا بأنه كان مرشحا للخلافة من قبل أبيه.<sup>(١٠)</sup> ويقرب المقرئ الصورة قائلا: "وتولى الملك بعده، عبدالرحمن، ابنه هشام بعهد منه إليه."<sup>(١١)</sup> ولا يبعد ابن خلدون عن ذلك بقوله: "إن عبدالرحمن عندما هلك كان قد عهد بالأمر إلى ابنه هشام،"<sup>(١٢)</sup> وأخيرا، وفي جملة التأكيدات بأن

(٩) مثل لسان الدين ابن الخطيب، الذي قال: "وكان قد عقد الخلافة لابنيه هشام وسليمان، فاستحق هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه، إذ كانا غائبين،" أعمال الأعلام، ١١.

(١٠) محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٦٣م)، ١: ٤٣.

(١١) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نصح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ١: ٣٣٤.

(١٢) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر"، تحقيق خليل شحاتة (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٤: ٧١.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

هشام كان قد وقع الاختيار عليه في زمن أبيه ، يقول النويري بأن عبدالرحمن "كان قد عهد إلى ابنه هشام بالولاية وهو حينها في ماردة واليا عليها لأبيه".<sup>(١٣)</sup>

فضلا مما سبق ، هناك روايات تلمح لإحراز هشام الولاية بعبارات غير مباشرة ، فالمقري ، في موضع آخر من كتابه ، وفي معرض حديثه عن عبدالملك بن عمر بن مروان ابن الحكم الأموي ، وجهوده في محاربة اليمانية المنتزعين على عبدالرحمن في إشبيلية ، يقول مستطردا بأن عبدالرحمن - حينما رآه ، أي عبدالملك - قد جرح ، أتاه وجرحه يجري دما وسيفه يقطر دما ، وقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقبّل بين عينيه ، وجزاه خيرا ، وقال له : " يا ابن عم ، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاما ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك كذا ، ولأولادك كذا ، وأقطعك وإياهم كذا ، ووليتكم الوزارة".<sup>(١٤)</sup>

ويصعد J.A. Condy من حالة التأكيد بأن الأمر كان قد حسم لهشام في أيام أبيه بإيراده رواية مفصلة يشرحها على النحو التالي : " جمع عبد الرحمن بن معاوية في نهاية السنة السبعين ومائة ولاية أقاليم الأندلس الستة في قرطبة ؛<sup>(١٥)</sup> وهي طليطلة ، وماردة ، وسرقسطة ، وبلنسيا ، وغرناطة ، ومرسيه بالاسم ، فضلا عن أربعة وعشرين وزيرا ، وعند اكتمال نصاب هؤلاء في محضره ، مع حضور حاجبه ، وقاضي قضاة ، وخطيب الجامع الكبير ، وهم أهل مشورته ، ورجاله الخُلص ، أعلن عبدالرحمن بأن ابنه هشام هو

(١٣) أحمد بن عبدالوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق حسين نصار (القاهرة: المكتبة العربية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ، ٢٤ : ٥١ .

(١٤) المقري ، نفع الطيب ، ٣ : ٩٥ .

(١٥) وهي أقاليم الأندلس ، كما أقر تقسيمها عبد الرحمن نفسه .

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

ولي عهده الأوحده، وخليفته من بعده، ومن ثم أخذت البيعة ويمين الولاء له في حياته، ولهشام بعد موته.<sup>(١٦)</sup>

كان من الممكن أن تحسم رواية كوندي الأمر المختلف عليه تماما، فهي لا تؤكد على حسم عبدالرحمن لقضية ولاية العهد، ولصالح هشام صراحة فحسب، بل تنوه بأن الإعلان لذلك جرى في محفل رسمي، وبصورة قاطعة لكل بواذر الشك. بيد أن الرواية تعترضها عقبات تمنع من الأخذ بها بصورة قاطعة، فهي أولا ينفرد بها كوندي، ولا ترد عند غيره إطلاقا، كما تفتقد الرواية، ثانيا، الإشارة لأي مصدر، وكان من الممكن التجاوز عن هذه الاعتبارات، وقبول الرواية، على الظن بأن كوندي ربما استقاها من حوليات أسبانية غير معروفة لنا؛ وذلك لأننا نملك حالات مماثلة اعتمد فيها على مثل تلك المصادر، وإن لم يصرح بها كعاداته في كثير من الأحيان، أو أنه اعتمد فيها على مترجمات من مصادر أندلسية لم تصلنا، أو أنه حتى أخذها من مؤرخ معروف لنا، وهو ابن حيان القرطبي، ومن جزء مفقود الآن من كتابه المعروف المقتبس الذي يغطي عصر عبدالرحمن وهشام، لا سيما أن كوندي يشير إلى ابن حيان في غير موضع من كتابه.<sup>(١٧)</sup> لكن برغم كل ذلك، إلا أن كوندي يضعف روايته بنفسه، مما يقلل من إمكانية الاعتماد عليها بالقطع، فهو يضعفها بذكرها مرتين، وبنفس التفصيلات، مرة في حديثه عن ولاية هشام، وأخرى في الحديث عن الكيفية التي تولى بها هشام ولاية

(١٦) J. A. Condy, *History of the Domination of the Arabs in Spain*, trans. J. Foster (London: Henry G. Bhon, 1854), 1: 224.

(١٧) لقد استفاد كوندي وأمثاله مثل ليفي بروفنسال من كتاب ابن حيان كثيرا، ويظهر ذلك جليا في ثنايا كتابه

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

العهد من أبيه ، وكأنه بذلك يبدي دلائل اختلاط الأمر عليه.<sup>(١٨)</sup> ولذلك فإن البحث سيكتفي بالإشارة إلى رواية كوندي بدون أن يعول عليها أكثر من ذلك.

ألححت الروايات التي استشهدنا بآراء أصحابها أنفا إلى حقيقة مهمة ، وهي أن البت في قضية ولاية العهد كان قد حسم بها في أيام عبدالرحمن ، وأن الترشيح كان من نصيب هشام ، وليس غيره. ومع التسليم بهذه الخلاصة ، يتوجب على البحث الآن طرح سؤالين : (١) إذا كان عبدالرحمن راغبا في خلافة هشام له ، واتخذ قراره في ترشيحه لولاية العهد مسبقا ، لماذا إذن أبقى الأمر سرا ولم يعلنه صراحة حسما للشكوك؟ (٢) وإذا كان الأمر قد حسم لصالح هشام بتلك الصفة ، لماذا كان الترشيح لهشام ، وهو ليس الأكبر في ترتيب الأبناء ، بل كان يسبقه سليمان في الترتيب ؛ فهو الأكبر بينما هشام الثاني؟ وأخيرا ما هي مسوغات ترشيح هشام والتجاوز عن سليمان؟

قد لا يكون من السهل تقديم إجابة عن هذه التساؤلات ، فالمصادر التاريخية والمراجع تتغافل عن القضية مرة أخرى ، ولا تقدم حيالها إجابات شافية ، وعليه لا يتبقى سوى اللجوء إلى التساؤلات الفرضية مرة أخرى ؛ أيكون سبب إبقاء عبدالرحمن قراره بترشيح هشام لولاية العهد سرا راجعا إلى أنه حينما حان وقت اتخاذ القرار الحاسم هذا كان رجلا متعبا من الجهد الذي بذله لبناء الدولة ، والإبقاء عليها ، أكان يعرف أن إعلان القرار صراحة سيجلب للدولة مشاكل مجددة؟ ولعل حدس عبدالرحمن كان صائبا هنا ، كما كان تقديره لما هو متوقع صحيحا أيضا ، فسليمان جلب لدولة أخيه هشام ، وعمه الحكم بن هشام من المشاكل والمناهضات ما برهن على صدق مثل ذلك التوقع. هل كان عبدالرحمن ، بوصفه قد شعر بخرج الموقف لو أنه سمى ابنه هشاما بالاسم ، وفي ذلك

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

تجاوز للأصغر على أخيه الأكبر سليمان؟ أيكون أخيرا، ومع ميله إلى هشام، ركن عبدالرحمن إلى جملة من التدابير وأحكم خيوطها، وأمل أن ينتهي الأمر إلى نهايته المرجوة.

إن إثارة مثل هذه التساؤلات تلجئنا إلى العودة إلى رواية ابن عذاري مرة أخرى؛ فالرواية كما أثبتناها تحوي وقفات ينبغي علينا الوقوف عند خطوطها بعض الشيء. هناك، أولا، العبارة التي قالها عبدالرحمن لابنه عبدالله الذي كان إلى جانب فراشه: "من سبق إليك من أخويك." إن هذه العبارة تلمح بأن عبد الرحمن كان قد ترك الخيار مفتوحا بين ابنيه، كما ترك الفرصة سانحة للثنين بشرط أسبقية الوصول إلى قرطبة من مركزي ولايتهما، سليمان من طليطلة، وهشام من ماردة، بيد أن التمعن في هذا الشرط يبين أن السباق المفروض على الأخوين لم يكن سباقا عادلا، لا من حيث المسافة، ولا من حيث توافق نقطة البدء، أو ربما حتى من حيث العلم ببدئه. فمن حيث المسافة وتوافق نقطة البدء، هناك اختلاف معروف ببعد طليطلة، مركز انطلاق سليمان، منه إلى بعد ماردة، نقطة انطلاق هشام إلى قرطبة. إن المسافة بين طليطلة وقرطبة، كما يحددها ابن خردادبه، هي مسرى "عشرون ليلة"، أو "تسع مراحل"، كما هي عند الإدريسي، ويصف الإدريسي مسالك المرتحل من قرطبة إلى طليطلة قائلا: "من أرادها -طليطلة - سار من قرطبة، في جهة الشمال، إلى قبة أريش، أحد عشر ميلا، ومنها إلى دار البقر ستة أميال، ثم إلى بطروش أربعون ميلا.. ومن حصن بطروش إلى حصن غافق سبعة أميال، ومن قلعة غافق إلى جبل عاقور... ثم قلعة رباح.. وهكذا." وبالمقارنة يحدد

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

الإدريسي المسافة بين قرطبة وماردة بـ "بضع مراحل"، ويصف مسالكها بـ "مرحلة لطيفة" أو "على بعد عشرين فرسخاً".<sup>(١٩)</sup>

إن المسافة بين قرطبة وطليلة إذن هي تقريبا ضعف المسافة بين قرطبة وماردة، ولا طائل للحديث عن المشقة المسالكية التي يتكبدتها المترحل في الطريقين، ولا نخال أن مثل هذه الحقائق كانت تخفى على عبدالرحمن. بيد أن الحقيقة الواضحة هنا هي أنه إذا فرض أن خبر وفاة عبدالرحمن أرسل إلى الأخوين سليمان وهشام بالتزامن، ألا يكون هشام في مثل هذه الحالة هو المبلغ بالوفاة قبل أخيه سليمان؟ بحكم اختلاف طول الطريق على الرسولين؛ وبالتالي يكون انطلاقته إلى قرطبة قبل انطلاقة أخيه. أولا يكون ذلك أيضا عاملا قد أخذ بحسابه؟

فضلا على ما ذكر، هناك إشارات وردت عند بعض المؤرخين تفيد بأن بلوغ خبر وفاة عبدالرحمن لهشام وسليمان لم يكن أيضا بالتزامن، فهناك تلميح بأن الخبر، فيما يرويه ابن الأثير، أُبلغ به هشام وحُبس عن سليمان. إن عبدالله، كما تفصل الرواية، عمل بوصية أبيه "أخذ البيعة لأخيه هشام وكتب إليه يعني أباه وبالإمارة، فسار من ساعته إلى قرطبة فدخلها في ستة أيام واستولى على الملك."<sup>(٢٠)</sup> إن نص ابن الأثير يشير

(١٩) عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه، *المسالك والممالك* (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)، ٨٩؛ أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الإدريسي الحموي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)، ٢: ٥٨٠ - ٥٨١؛ أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري، *كتاب الجغرافية*، تحقيق محمد حاج صادق (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)، ٨٦.

(٢٠) علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد بن الأثير الشيباني الجزري، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٥: ٨٣. ويروي النويري الواقعة بتفصيل أوسع قائلا: "فبايع له أخوه عبدالله وكتب إليه يعني أباه ويعزيه ويعرفه أنه بايع الناس له، فلما وصل إليه الكتاب سار إلى قرطبة، فدخلها في ستة أيام استولى على الملك، وخرج عبدالله إلى داره مظهرا

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

بالجزم إلى أمرين؛ أولهما، أن الأمر كان قد انتهى لهشام، وصار إليه، ثانيهما، أن خبر الوفاة كان قد حُبس عن سليمان، وهذا تؤكد سير الوقائع التالية لما حدث، فسليمان لم يعرف بوفاة والده، إلا بعد أن انتهى الأمر لهشام، وهو لا يزال في طليطلة، حيث آثر عندئذ البقاء فيها، كما يروي ابن عذاري، ومجاهرة هشام بالعداوة، حيث أخذ بيعة أهل طليطلة وما جاورها لنفسه، وغلب عليها.<sup>(٢١)</sup> وإن كانت هناك معلومات مفادها، حسبما سيرد لاحقاً، أن سليمان سار بجيش إلى قرطبة.

من خلال هذه المعطيات، هل يمكن أن نقول إن الوصية التي نطق بها عبدالرحمن وهو على فراش موته فيما يخص موقفه من ولايتي عهد ابنه سليمان وهشام، لم تكن في واقع الأمر إلا فصل الحُتام لأمر كان قد دبر، وأحكم تفصيلاته، لعل ذلك ما كان. لقد أثار البحث سؤالين خاتمة للفصل السابق، يتعلق الأول بسبب إبقاء عبدالرحمن رغبة توليه ابنه هشام الولاية سرا، والثاني، لماذا كان الترشيح لهشام، وما هو سبب الميل إليه؟ ومن أجل الوصول إلى إجابات لهذه التساؤلات، يتوجب على البحث تقصي أسباب الميل إلى هشام، والبحث عن الشروط المطلوبة التي توافرت فيه ومقارنتها بالشروط التي لم تتوافر عند سليمان.

حاولت المصادر، ربما لإدراكها أهمية واقعة وصول هشام بن عبد الرحمن إلى إمارة الأندلس خلفاً لأبيه بوصفه حدثاً يستحق الاهتمام والعناية، أن ترجع بذاكرتها إلى

---

لطاعته، وفي نفسه خلاف ذلك." وينفرد ابن عذاري برواية حدوث معركة بين هشام وسليمان أثناء التوجه إلى قرطبة، عند سماعهما خبر وفاة الداخل، وأن النصر كان حليف هشام في هذه المواجهة، البيان المغرب، ٢: ٦٢؛ النويري، نهاية الأرب، ٧٣.

(٢١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢: ٦٢، نقلاً عن الرازي.



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

الوراء ما أمكن وتسجل كل ما تمكنت من رصده عن سليمان وخاصة عن هشام. وينبغي الاعتراف هنا أن اهتمام المؤرخين نتج عنه توفير قدر مهم من المعلومات عن الأخوين، الأمر الذي نتج عنه أيضا رصد فروقات شخصية متباينة في الطباع الشخصية، وكذلك في الميول والقدرات الخاصة، وفي الانتماءات أيضا وجوانب القوة والضعف فيهما. فالمصادر التاريخية رصدت هذه الفوارق بالإشارة إليها صراحة، أو بالتنبيه لها بالتلميح، أو حتى بإيرادها ضمن سياق استدلالتي ضمن مرويات عامة.

عن الرصد المباشر، يسجل ابن الأبار ما يمكن اعتباره أميز الفروق التي كانت قائمة بين الأخوين، بقوله إن عبد الرحمن، اعترافا منه بحال ابنه سليمان وهشام وتنويها بهما، كان يأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس مشورته: "وكانا يركبان متداولين ومتناولين لا يجمعان. فإذا كان يوم هشام، تأهب حاضرو المجلس من كبار أهل المملكة... والإفاضة في الحديث إلى إنشاد شعر أو ضرب مثل أو ذكر يوم من أيام العرب أو ذكر حرب، أو اجتلاب حيلة، أو حكاية تدبير وإحماد سيرة؛ وإذا كان يوم سليمان خلا من ذلك كله، وانبسط الحاضرون في غث الأحاديث، وأخذوا في الدعابة."<sup>(٢٢)</sup>

وفي محاولة من المصادر لرصد مكان من هذه الفروق، يفصل صاحب *نفع الطيب* : "وكان الداخل كثيرا ما يسأل عن ابنه سليمان وهشام، فيذكر له أن هشاما إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكرنا لأموال الحروب ومواقف الأبطال، وما أشبه ذلك، وإذا حضر سليمان مجلسا امتلأ سخفا وهذيانا، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان،

وقال يوما لهشام: لمن هذا الشعر؟

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا      وَمِنْ خَالِهِ أَوْ مِنْ يَزِيدٍ وَمِنْ حُجْرٍ  
سَمَاحَةً ذَا، وَيَرُّ ذَا، وَوَفَاءَ ذَا،      وَنَائِلَ ذَا، إِذَا صَحَّحًا وَإِذَا سَكَّرَ

(٢٢) ابن الأبار، *الحلة السيرة*، ١ : ٤٢.

فقال له : يا سيدي ، لامرئ القيس ، ملك كنده ، وكأنه قاله في الأمير أعزه الله ؛ فضمه إليه استحسانا بما سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد في عينيه ، ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر؟ وأنشد البيتين ، فقال لعلهما لأحد أجلاف العرب ، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ؛ ... ويستطرد المقرئ قائلاً : فأطرق عبدالرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية".<sup>(٢٣)</sup>

إن الجملة الأخيرة التي يختم بها المقرئ روايته تلمح على توجه في عبدالرحمن ينبغي التنبه إليه ، وهو أنه لم يكن البتة غافلاً عن التعرف على الاستعدادات المتوافرة في ابنه الكبار سليمان وهشام. فعلى النقيض من لوم بعض المؤرخين عبدالرحمن بإهماله إعطاء عنايته بتسمية من يتولى الأمر من بعده ، إلا أن المتابعة الشخصية منه لاختبار قدرات ابنه اللذين يعدهما بالتروي للأمر ، يمكن عدّه أمراً يقع في صميم عنايته بهذه القضية. فالوصية الأخيرة التي استعرضناها تؤكد على إلمامه التام بمكامن القوة لدى الاثنين ؛ "فإن سبق إليك هشام ، فله فضل دينه وعفاه واجتماع الكلمة عليه ؛ وإن سبق إليك سليمان ، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين إليه ،" إن الفوارق التي أشار إليها عبدالرحمن هي في الواقع أكثر الفوارق ثباتاً على الأخوين ، بمعنى أن عبدالرحمن حينما أوصى بالوصية المشهورة كان أعرف الناس بالفوارق القائمة بين ابنيه.

أما عن الفوارق الاستدلالية التي يستدل عليها من سياق روايات غير مباشرة ، فهناك أيضاً قدر غير قليل منها. لكن قبل التعامل مع مثل هذه الروايات ، ينبغي علينا الإشارة هنا إلى أن البحث - في مرحلته هذه - سيكتفي بما ذكر عن هذه الفوارق قبل

(٢٣) المقرئ ، نصح الطيب ، ١ : ٣٣٤ .

تولي هشام بن عبد الرحمن الإمارة، وذلك لأن ما ناله هشام من مدح وثناء بعد توليه الإمارة، وعدم ذكر لما يماثلها من المؤرخين عن سليمان، يجعل من غير الإنصاف إيراد شواهدها، بل إرجاء ما قيل عن "هشام الأمير" إلى حين مناسبة الحديث عنها لاحقاً، وعند الحديث عن مزايا "هشام الأمير أيضاً"، إذ ليس من العدل الحكم على سليمان الذي كان نصيبه الإهمال والسلبية من المؤرخين بنفس المعيار الذي ناله هشام من الاهتمام من المؤرخين إبان توليه الإمارة، فالمؤرخون عندئذ أولوا هشاماً موفور عنايتهم وتقديرهم للأمير عادة وانصرفوا في المقابل عن سليمان لبقائه خارج السلطة.

بالإضافة إلى ما قيل، هناك مبرر مقبول لإيراد الفوارق التي ذكرت عن الأخوين قبل تولي هشام الإمارة دون الخشية من الوقوع في الانحياز لأحدهما، إذ ليس هناك ما يدعو إلى الشك أن المؤرخين وقتذاك كانوا يتعاملون معهما بنظرة متساوية؛ فنحن لا نملك دلائل انحياز منهم لأحدهما دون الآخر، فهم وعند إشارتهم إلى صفات خلقية إيجابية في هشام، ولم يأتوا إلى مثلها عند سليمان، فإن هذا لم يكن بسبب تفضيل لأحدهما وإنما إقرار لواقع مثبت. فالمؤرخون مثلاً حينما أشاروا لهشام بأنه كان متصفاً بصفات أخلاقية عالية منها: الحرص على مودة الناس والطموح وصناعة الرجال وكذلك البعد عن الصغائر، والنظرة البعيدة، فإنهم حينها لم يثبتوها عليه إلا لأنه كان متصفاً بها أصلاً، ولكن دون أن يغيب عن بالنا أن مجمل هذه الصفات لربما قالها المؤرخون عن هشام، ذاكرين أنه عرف بها قبل وصوله الإمارة، إذ ليس مستبعداً أنه لو وصل سليمان إلى الإمارة بدلاً من هشام لربما عرفناه بهذه الصفات، ولم نعرف منها شيئاً لهشام.

وصُف هشام بأنه "كان عاقلاً، لم تعرف منه هفوة في حديثه، ولا زلة في أيام صباه"<sup>(٢٤)</sup> ومثل هذه الأوصاف لا توردها المصادر عن سليمان؛ فالمصادر إن أوردت شيئاً عن سليمان، فإنها توردها بصفات يمكن الاستدلال منها بأنه لم يكن يوازي أخاه في

الصفات الحسنة. فهناك رواية ترد عند غير مؤرخ، يشير فيها أصحابها إلى واقعة كان كل من سليمان وهشام طرفا فيها، في هذه الواقعة الطويلة، ومن سياق أحداثها وجود تباين واضح في الطباع والتصرف بين سليمان وهشام. ففيما يخص جانب سليمان في الحادثة، تلمح الرواية بوضوح على غلبة الطبع الاستبدادي فيه، فهو يظهر كوالٍ لا يتورع من إيقاع مظلمة على عشيرة كاملة، بنو كنانة في جيان، في أمر يخص أحد أفرادها، وذلك حينما كان يتولى أمر المدينة لوالده. وفيما يخص جانب هشام هنا؛ الرواية تظهره كرجل حريص على إحقاق الحق، ورفع المظلمة ممن أوقع به، وتفصل الرواية قائلةً، إن هشاما، عندما أتاه الكناني شاكيا ومبلغا عما وقع عليه وعلى عشيرته من قبل سليمان، لم يقف إلى جانبه ويرفع عنه بغدية كبيرة - "عقد كان شراؤه عليه ثلاثة آلاف دينار" - فحسب، بل نراه يتوسط لدى أبيه عبدالرحمن برفع الظلم وتحمل كافة الغدية المفروضة من بيت مال المسلمين، والكتابة إلى سليمان بالإمساك عن مثل ما فعل مستقبلا.<sup>(٢٥)</sup>

الواقعة السالفة تلمح أيضا إلى صفة يؤكد المؤرخون حرص هشام عليها، وهي صنيعه الرجال والإبقاء على مودتهم، فالكناني الذي حمل المظلمة إليه لم يكن إلا أحد قدماء صناعه من أهل جيان، وبسببه كان هشام حريصا على إرضائه ورفع المظلمة عنه. في الحقيقة أن ذات الصفة الأخلاقية التي عُرف بها هشام يورد لها المؤرخون مثالا آخر، فابن الآبار وآخرون، يروون أن "رجلا يعرف بالهوارى دخل على هشام في حياة أبيه - وهو مرشح للخلافة - فقال له إن فلانا مات عن ضيعة تعود بكذا وكذا من الغلة، وإنها تباع في دين أو عن وصية، وهي ناعمة مثمرة وطيبة الأرض مخصبة، وحضه على

(٢٥) هي قصة طويلة، لم نشأ إيرادها خشية الإطالة، ونكتفي بإحالة القارئ إليها في المواضع التي يكررها المؤرخون. بالتناقل؛ انظر: المؤلف المجهول، أخبار مجموعة، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠١هـ)، ١١٠ - ١١٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢: ٦٧ - ٦٨؛ المقرئ، نفع الطيب، ١: ٣٣٥ - ٣٣٦.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

اشترائها. فقال له: "أنا أريد أمرا إن بلغته غنيت عنها، وإن قطع بي دونه خسرتها؛ ولاصنطاع رجل أحب إليّ من اكتساب ضيعة، فقال له الهواري: فاصطنعني بها تجد أكرم مصطنع، فأمر بابتياعها -له- فأشار بعض من حضر إلى أن الاستعداد بالمال أعون على درك الآمال فأطرق عنهم ثم قال:

البَذْل - لا الجُمُع - فِطْرَةَ الكَرَمِ فلا ترد بي مالم ترد شيخي  
مَا أَنَا مِنْ ضَيْعَةٍ وَإِنْ نَعِمْتَ؟ حَسْبِي اصْطِنَاعُ الأَخْرَارِ بِالنَّعَمِ  
ملك الوري، والعباد قاطبة - لا ملك بعض الضياع - من هممي<sup>(٢٦)</sup>

ما يلفت الانتباه فيما قاله هشام شعرا هو البيت الأخير، في هذا البيت يؤكد هشام على صفة فيه يعدها العارفون له أنها من إحدى صفاته المميزة، ألا وهي الطموح، ويُعد النظر والترفع عن الصغائر. فهشام هنا يؤكد أن همه ليس امتلاك الضياع، بل ملك الوري والعباد قاطبة. وإن تطلعه هذا فيه تأكيد على ترفعه عن المكاسب الآنية والوقئية الصغيرة، وإنما هدفه المكاسب العالية والكبيرة.

إن سيرة هشام الحسنة تلك، على أية حال، ليست كذلك دوما. فالمؤرخون، برغم حرصهم على إبعاد السلبيات عن سيرته عموما، إلا أنهم لا يملكون الحيلة من ذكر حادثتين كان هو محورهما، تظهران جانبا من شخصية هشام يناقض ما عُرف عنه من لين وتسامح. تتعلق الحادثة الأولى، فيما حصل بينه وبين شاعر عصره عاصم بن زيد التميمي، المعروف بكنيته: أبو المخشى؛ وكان أبو المخشى قد اعتاد - كما عُرف عنه - على

(٢٦) ابن الأبار، الحلة السيرة، ١: ٤٢.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

التكسب من شعره، وكان عارفا بالتنافس، والمشاحة القائمة بين الأخوين سليمان وهشام، على أيام أبيهما، وكان لذلك كثير التردد على بلاط سليمان في طليطلة أيام ولايته عليها. ويروى عنه - حينه - قوله شعرا تعرض، أو هكذا قيل عنه، كما هو عند بعض المؤرخين، فيه إلى صفة خُلقية كانت في هشام، وهي الحول، وعند سماع ذلك، استدعى أبا المخشى إلى مقر ولايته في ماردة، وعند وصوله إليها، أمر هشام بقطع لسانه وسمل عينه.<sup>(٢٧)</sup>

إن دلائل الإفراط في القسوة لدى هشام تتكرر أيضا في قتله ابني كل من خالد بن عثمان وتمام بن علقمة، وهما من أبناء الدعائم التي قامت دولة عبدالرحمن في الأندلس على أيديهما، فخالد بن عثمان، وهو من زعماء الموالي في الأندلس، كان أول من ناصر رغبة عبدالرحمن في إقامة دولة له هناك، وكان له أثر لا ينكر في تهيئة الأوضاع له عند دخوله إليها. أما تمام بن علقمة، فقد كان مبشرا لعبدالرحمن، وهو في المغرب، بتألف أنصار له في الأندلس؛ ومن ثم مصاحبته الدخول معه في مركبه إليها.

رواة هاتين الواقعتين، على أية حال، يصمتون عن الأسباب التي أدت بهشام إلى ارتكاب مثل تلك الفظائع التي تتنافى مع ما عُرف عنه من لين الطبع والتسامح، كما أنهم لا يذكرون زمن وقوعهما، والأرجح هنا أن هشاما وقع في مثل تلك الزلاّت قبل توليه

---

(٢٧) هو عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدي بن محمد التميمي، ثم العبادي الجاهلي. وقد روى غير مؤرخ تفاصيل واسعة عنه وعن حياته، وخاصة ما كان بينه وبين هشام، انظر: ابن سعيد، *المغرب في حلي المغرب*، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥م)، ٢: ١٢٣ - ١٢٤؛ كذلك، لسان الدين بن الخطيب، *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق محمد عبدالله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٧م)، ٤: ٢٣٢ - ٢٣٣. انظر كذلك: عبدالغفور روزي، "أبا المخشى الأندلسي التميمي، شاعر أعار سيرته للتاريخ"، *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*، الكويت (تحت النشر).

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

الإمارة، إذ أن المعروف هنا أن أمره بقطع لسان أبا المخشى كان في أيام ولايته على ماردة، في أيام عبدالرحمن. والمعروف أيضا أن هشاما، كدلالة على التماسه جانب الزهد والرحمة، إبان توليه الإمارة، كان قد ندم على ما لحق بأبي المخشى على يده، إذ تقرب إليه وحاول إصلاح حاله بالأموال.

إن هشاما، على أية حال، كان قد أقر بالتباين المتطرف في صفاته في حالتي السكون والغضب، وذلك عندما ألمح إلى ذلك شعرا بقوله:

تَفِيضُ كَفِّي فِي السَّلْمِ بِحَرْنَدَى وَفِي سَجَالِ الحُرُوبِ بِحَرْدَمِ<sup>(٢٨)</sup>

فهو كان حليما، يُنصح باتقاء غضبه في شبابه، وإن غدا حليم الصفات، كما سنرى لاحقا، في أيام إمارته.

ظل عبدالرحمن الداخل، أبا وأميرا مسؤولا عن مصالح دولته، معترفا بالفروقات الفردية التي تمكن من رصدها في ابنيه سليمان وهشام. وقد بينت وصيته - كما عرفناها - اعترافا منه بمزايا لسليمان؛ "فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له"، وبأخرى لهشام؛ "فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه".

إن إفصاح عبدالرحمن بتلك الفروقات في وصيته الأخيرة تدل على أنه كان مدركا لتوافر دلائل فردية مميزة في كل من ابنيه اللذين كان يعد أحدهما لخلافته من بعده. ويستحسن الإشارة هنا إلى أن عبدالرحمن أظهر في جميع المراحل التي تمكن البحث من

(٢٨) انظر إلى مجمل هذه الوقائع في: المقري، نصح الطيب، ١: ٣٣٥ - ٣٣٦.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

تتبع خيوطها العدل والمساواة تجاه سليمان وهشام ، سواء في تنشئتهما وتعليمهما ، أو في إيكال المسؤوليات لهما فيما بعد.

لقد بدأ عبدالرحمن في الاعتماد على سليمان وهشام حال إدراكهما لسن المسؤولية في استشارتهما في اختيار من كان يرغب في ترشيحه لتولي المناصب المهمة في دولته ، فالاثنان سويا كان لهما رأيهما في اختيار مصعب بن عمران لمنصب قاضي الجماعة.<sup>(٢٩)</sup> وتواصل الأمر بعد ذلك ، كما يقول ابن الآبار ، "باستوزارهما ، تنويها بالهما."<sup>(٣٠)</sup> ومن هذه الأمثلة يمكن القول إن سليمان وهشام كانا فعليا من عداد رجالات دولة عبدالرحمن في قرطبة رغم بكورة سنهما.<sup>(٣١)</sup>

عندما أخذت دولة عبد الرحمن في التوسع في الأندلس على أثر تغلبه المرحلي على أعدائه والمناوئين لدولته ، بدأ عبد الرحمن عند ذاك في الاعتماد الفعلي على ابنه في ملء مناصب الولاية المهمة في الأقاليم التي ضُمت لدولته. ويبدو أن عبد الرحمن بدأ بهذا الأمر أولا بسليمان ، إذ يرد في قصة الكناني ، التي سبق الإشارة إليها ، أنه كان واليا على جيان من قبل أبيه ؛ بينما كان هشام لا يزال في قرطبة. ولكن تاليا رأينا سليمان واليا على طليطلة ، وهشام على ماردة.

الدلائل السابقة لا تلمح بأي حال من الأحوال إلى صورة تمييز وتفضيل من قبل عبدالرحمن لأحد ابنه ، بل إن التمعن الدقيق في صفة المناصب التي أوكلت لكل من

(٢٩) الخشني ، أبو عبدالله محمد بن الحارث بن أسد القيرواني ، قضاة قرطبة ، تحقيق دار إحياء التراث (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م) ، ٣.

(٣٠) ابن الآبار ، الحلة السيرة ، ١ : ٤٢ .

(٣١) لعل ما يؤكد هذا التفسير قول المقرئ إنه "لم يكن للداخل من يطلق عليه سمة وزير ، لكنه عين أشياخا للمشاورة والموازرة ،" المقرئ ، نفع الطيب ، ٣ : ٤٥ .



## هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

سليمان وهشام يبين أنه كان هناك شيء من التفضيل والثقة في سليمان أسبق منه لهشام. صحيح أن هشام سبق سليمان في مهمة خاصة أُكلت إليه وهي شهود الجنائز وحضور المحافل نيابة عن أبيه،<sup>(٣٢)</sup> بيد أن هذه الإنابة كانت، كما هو واضح من مهماتها، مهمة احتفالية، ليس فيها صفة المهمات الرسمية، فهي لا تعدو عن كونها إنابة شخصية عنه في واجبات اجتماعية آثر عبدالرحمن - لظروف خاصة - عن التوقف من القيام بها بنفسه. بيد أنه من الجانب الأهم للمهمات، كانت المهمات التي أنيطت إلى سليمان، مهمات لا ريب أنها كانت أكبر مكانة وأهم، من حيث المسؤوليات المنتظرة منه. لقد بدأ سليمان مهماته الرسمية بتولي ولاية جيان لأبيه. وهي مدينة مهمة لا سيما إذا قيست أهميتها للمرحلة الزمنية لتولي سليمان لها. فهي فضلا عن أنها كانت بوابة قرطبة، عاصمة دولة عبدالرحمن، الشرقية - الجنوبية، كانت أيضا خط مواجهة بين عاصمة عبدالرحمن وأعدائه، بالأخص القوى القبلية المناهضة له في الجنوب الشرقي، والجنوبي من الأندلس.

لا ريب أن مسؤولية سليمان، بوصفه رجلا حائزا على ثقة أبيه، يضطلع بحماية أطراف الدولة، تضاعفت بتوليه ولاية مدينة طليطلة. إن طليطلة هي ليست أبعد المدن من قرطبة عمقا في الوسط الشمالي للأندلس فحسب، بل هي المدينة الرئيسة التي ألقى عليها مهمة مراقبة الشمال النصراني، فهي لهذا الاعتبار اكتسبت مسمى "عاصمة الثغر الأندلسي الأدنى". ويضاف إلى ذلك اعتبار آخر، ميز هذه المدينة عما عداها من مدن الأندلس، فالعروف أنها كانت عاصمة دولة القوط قبل الفتح الإسلامي، وعليه فقد شكّلت غالبية سكانها من العناصر الأسبانية القديمة، زاد عليه أن عناصر كثيرة من

---

(٣٢) المقرئ، *نصح الطيب*، ٣: ٣٧. ويعزو المقرئ سبب ذلك إلى تعرض عبدالرحمن إلى مزاحمة من رجل أصرّ على إنصافه من مظلمة وقعت عليه من قاضيه، بينما كان يحضر جنازة. ولقد أشار إليه رجال دولته بالكف عن مثل تلك المخالطة مع الناس، وعليه فقد أوكل لابنه هشام القيام بتلك المهمات نيابة عنه.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

الجماعات العربية المعادية لعبدالرحمن والتي فقدت قواعدها في الجنوب والوسط الأندلسي قد نزحت إليها. ولذلك فإن مهمة الإبقاء على هذه المدينة تحت النفوذ الأموي، ومنع المد النصراني جنوباً، والسيطرة على سكانها المتنافرين عرقياً وسياسياً، كان لا شك يمثل عبئاً ثقيلاً لعبدالرحمن وسليمان أيضاً.

وفي المقابل، فإن مدينة ماردة التي أوكلت ولايتها لهشام، كانت أقل من حيث الاستراتيجية الراهنة أهمية من طليطلة. فالمدينة وإن كانت قد عدت سابقاً أنها واحدة من ثلاث مدن في الوسط الأندلسي، بعد إشبيلية وقرطبة، من حيث الأهمية، إلا أنها وعند ولاية هشام لها كانت قد بدأت تفقد هذه المكانة تدريجياً، خاصة بعد اطمئنان عبدالرحمن على وضعها وولايتها، بعد تمكنه من القضاء على المناهضات التي انطلقت منها، مثل حركة العلاء بن مغيث اليحصبي، التي استمدت قوتها من تحريض العباسيين لها، أو حركة الفاطمي، التي قام بها رجل من البربر، يعرف بشقيا بن عبدالواحد المكناسي،<sup>(٣٣)</sup> التي انطلقت من ما يعرف بالغرب الأندلسي. ولهذا الاعتبار، فإن ماردة لم يكن يمثل حكمها تحدياً لعبدالرحمن ولهشام على السواء؛ فالأمويون حينذاك كانوا قد أحكموا سيطرتهم على كامل ما يعرف بمنطقة القلب الأندلسي، والتي كانت ماردة تقع في نطاقها الجغرافي. ولذلك فإن الاهتمام الأموي العسكري لم يكن منصباً بالدرجة الأولى على هذه المنطقة، بقدر ما كان موجهاً إلى مناطق الأطراف البعيدة مثل طليطلة.

تقود الطرقات السابقة إلى خلاصة يمكن الاستفادة منها بأن سليمان كان قد ضمن لنفسه أولوية سلم الترتيب الإداري والسياسي في الأندلس، من بعد عبدالرحمن، إذ يشفع له إحراز مثل هذا الضمان غير اعتبار، أوله: كبر سنه، أو فضل سنه، كما أقر بذلك

(٣٣) انظر تفصيلات هذه المواجهات، المؤلف المجهول، أخبار مجموعة، ٩٤- ١٠١.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

عبدالرحمن نفسه، في الوصية المعروفة.<sup>(٣٤)</sup> ثانيه: أن عبدالرحمن أوكل إليه القيام بمهمات كبيرة لدولته، وهي لا تزال تعاصر مراحل بناء قوتها الإدارية. ثالثه: نجاح سليمان في المهمات الموكولة إليه دون ترك قصور يتنبه إليه المؤرخون الراصدون دوما لسليباته.

لعل أقوى الدلائل المعبرة على تعزز مكانة سليمان عند أبيه، والمؤكد أيضا على أن مستقبل الأندلس السياسي كان قد عقد آماله عليه، هي الرواية التي تشير إلى أن عبدالرحمن كان قد أشاع في سنة ١٦٣ هـ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس. وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان في الأندلس في طائفة، ويذهب بعامة من أطاعه إلى المشرق، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الأنصاري الذي انتزى عليه بسرقسطة، فبطل ذلك العزم.<sup>(٣٥)</sup>

إن التاريخ الذي يحدده المقري، راوي الرواية السابقة، مهم لسباق ما سوف يطرحه البحث للمناقشة تاليا. فالتاريخ المعطى هنا، وهو السنة ١٦٣ هـ، فيه تأكيد على أن عبدالرحمن بعد تغلبه على من ناوؤوه سبيل توحيد الأندلس تحت مظلة الحكم الأموي الذي أقامه، وبتنامي الشعور لديه بدخول دولته لمرحلة الاستقرار النهائي، وقبل وفاته بسبع سنوات تحديدا، كان قد قطع برأيه فيمن سيخلفه، في حال غيابه عن الأندلس في مخططة الرامي إلى قيادة جيش أموي بنفسه، واستعادة الشام من العباسيين.

(٣٤) يجمع المؤرخون على أولية ترتيب سليمان لإخوانه، ولكنهم يختلفون بين هشام وعبدالله، الذي يذكر في الوصية، بعضهم يجعله أكبر من هشام. أي الثاني في الترتيب بعد سليمان، وآخرون يجعلونه الثالث، أي بعد هشام، ويحسم ابن حزم الأمر مؤكدا أن سليمان كان أسن من هشام بنحو اثني عشر عاما، وهشام من بعده. أما عبدالله فيأتي ترتيبه السادس بين إخوته. انظر: أبو محمد علي بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب، تحقيق عبدالسلام هارون، ط ٥ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٩٤.

(٣٥) المقري، نصح الطيب، ٣: ٥٤.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

وهنا يبدو أن الأمر من بعده وكأنه قد قيص لسليمان دون أحد من إخوته ، لأن الاعتراف  
بالمكانة التالية لسليمان من بعد أبيه في حياته ، من البديهي أن يؤخذ به أيضا بعد مماته .  
إن الإقرار بإحراز سليمان أولوية الترتيب في نظر أبيه في المرحلة المذكورة تحديدا  
يعيدنا إلى طرح سؤال نجمل فيه ما سبق أن تبناه البحث سالفا من أن اختيار عبدالرحمن ،  
قبيل وفاته ، كان قد استقر على هشام ، متجاوزا بذلك ابنه الأكبر سليمان . وبمقتضى هذا  
الأمر ، السؤال المطروح هو ما الذي دفع عبدالرحمن إلى تغيير رأيه ، والتحول من  
سليمان إلى هشام؟ وبناء عليه ، ما هي التغييرات التي طرأت في نفس عبدالرحمن تجاه  
ابنيه ، وأدت إلى هذا التحول ، أكان ما حصل نتيجة لتغير العلاقات ، أم أن مستجدات  
طارئة كان لها أثرها في تغير المواقف ، واستبدال الأفراد؟

قد لا يتوافر للبحث تقديم إجابات شافية عن هذه التساؤلات ، كما تعوزه الدلائل  
لترح الفرضيات ، فما يملكه حيال هذه المعضلة لا يعدو عن محاولات يحاول فيها البحث  
أن يستشف دلالات من التغييرات المرصودة على السنوات الأخيرة من حكم عبدالرحمن ،  
والتغيرات العسكرية التي مرت بها دولته خلالها . إذ أن التحول من سليمان إلى هشام في  
أمر مهم كولاية العهد لم يكن إطلاقا حدثا عابرا ، تغفل عنه الوقائع المصاحبة ، بل لا بد  
وأن التقلبات السياسية التي عاصرتها السنوات الأخيرة لحكم عبدالرحمن سجلت حتما  
ما يمكن الاستدلال عليه تجاهها .

لقد أكد البحث في طروحاته الأنفة الذكر أن عبدالرحمن الداخل لم يبد منه  
تفضيلا لسليمان أو لهشام ؛ فما عُرف عنه إثاره المساواة بينهما ، فهو إذا كان قد أسبق  
سليمان لمهمات كبيرة ، فعمله هذا لم يكن إلا بما تفرضه أسس التعامل مع الأبناء ،  
بحسب الأولويات السنوية . إن كبر سن سليمان أهله لولايتي كل من جيان أولا وطليلة  
بعد ذلك ، وعندما وصل هشام إلى سن التأهل أحرز هو الآخر ولاية ماردة . ولعل

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

عبدالرحمن - عاملاً بهذا المبدأ - أعلن صراحة بأن سليمان سيخلفه في الأندلس، في حال سيره بأعوانه إلى المشرق، لاستعادة مناطق حكم أسلافه من العباسيين. لكن توقيت عبدالرحمن لإشاعة قراره الترحل إلى المشرق هو الذي ينبغي علينا التوقف عنده قليلاً. إن سنة ١٦٣ هـ هي، بلا جدال، تاريخ حاسم لبناء عبدالرحمن دولته في الأندلس. فهذه السنة تمثل بالنسبة له ذروة النجاح العسكري والتي تمكن فيها من تحقيق انتصاراته على أعدائه أخيراً، الأمر الذي مكنه أيضاً من فرض سيادته على ثلثي الأندلس.

ولعل هذا النجاح الباهر هو الذي ربما وُلد لدى عبدالرحمن شعوراً متزايداً بقدرته العسكرية، الأمر الذي أطمحه بأنه بمقدوره الآن مواجهة العباسيين في عقر دارهم في المشرق. فالمرحلة إذن كانت مرحلة النشوة العسكرية العارمة التي يبرز فيها أهل الكفاءة العسكرية، ولم يكن لعبد الرحمن أقدر من سليمان، الذي عُرف بتوجهه العسكري، وميوله لطبقات العسكرية الأندلسية. فهو إذن كان رجل المرحلة، دون أدنى منافس، لا سيما إذا قورن بهشام، ذي الميول الفكرية، مثلما سنعرف لاحقاً. ولذلك فإنه ليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب إذا ما أحرز سليمان ثقة أبيه؛ فالشروط توافقت فيه بما تمليه نظرة عبدالرحمن وما أملتته المرحلة التي كانت الأندلس تعايشها حينذاك.

أشارت رواية المقرئ إلى أن قيام الحسين بن يحيى الأنصاري بحركته الانفصالية، في سرقسطة، دفع عبدالرحمن إلى تغيير خطته الرامية إلى قيادة جيش الأندلس إلى دمشق. والواقع أن هذه الحركة برغم أنها كانت آخر الحركات التي واجهها عبدالرحمن، إلا أنها لا جدال كانت واحدة من أخطر الحركات التي واجهته؛ فهي لم تضم آخر التجمع المناوئ له في الشمال الشرقي من الأندلس، تحت قيادة كل من الزعيمين الحسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة، وسليمان بن يقظان الكلبي في برشلونة فحسب، بل سرعان ما

تحولت إلى حركة دولية بانضمام شارلمان رأس الدولة الفرنجية إليهما.<sup>(٣٦)</sup> ورغم أن البحث لا يرغب في الخوض في تفاصيل ما حدث، إلا أن ما يمكن الإشارة إليه هنا، هو أن هذه الحركة وإن كان إبطال خطورتها لم يكن مكلفا لعبدالرحمن، إلا أن نتائجها كانت مهمة له، لأنها أفضت إلى ضم مناطق الحركة لدولته؛ مما أدى إلى مد نفوذ دولة عبدالرحمن حينها إلى كامل التراب الأندلسي، فيما خلا مناطق النصرارى في أقصى الشمال، لكن هذه المنطقة لم تكن قد دخلت في الحسابات السياسية العسكرية بعد.

لعل الأثر الأكبر لهذه التطورات، أن عبدالرحمن لم تعاوده الرغبة في التشفي من العباسيين بالترحال إليهم في المشرق، ولكن عوضا عنه، أبدى عبدالرحمن دلائل اهتمام بدولته التي نجح بعد كلل من إقامتها الآن على كامل الأندلس. ولا غرو أن هذا كان إنجازا مجسدا لكل ما عمل على تحقيقه. فهو الآن سيد الأندلس. وفي المقابل ليس هناك من يجرؤ على حمل السلاح ضده، كما كان الأمر في الماضي. ولعل هذا أفضى إلى تحول مهم أيضا في الأندلس، ألا وهو تجاوز دولة عبدالرحمن مرحلتها العسكرية إلى مرحلتها الاستقرارية والمستقبلية. والأهم في هذا الأمر أن هذه التغييرات كانت، فيما يبدو، تنعكس على عبدالرحمن نفسه، وتدفعه إلى التماس ما يضمن له تواصل دولته من بعده على أسس جديدة، بعيدة عن القواعد التي ارتكزت عليها توجهاته في الماضي.

ولعل ما صاحب هذه التغييرات، تغير في الشروط المطلوبة فيمن هو الأنسب على قيادة دفة الحكم في الأندلس مستقبلا، أهو سليمان بتوجهه العسكري، أم غيره، والبديل هنا هشام بميوله الفكرية. إن الشروط المتوافرة عند سليمان لربما لم تعد الآن متوائمة مع

(٣٦) انظر تفاصيل هذه الوقائع في: المؤلف المجهول، أخبار مجموعة، ١٠٢ - ١٠٥. انظر كذلك يوجن أولر، أسلافنا العرب، ترجمة محمد محفل (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٥م).

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

المستجدات التي طرأت على أوضاع دولة عبدالرحمن، إذ تبدل الحال العسكري إلى الحال البنائي للدولة؛ ففي مثل هذه التحولات تغدو العقليات العسكرية عديمة التناغم، وما يتناغم في أحوال كهذه هم ذوو التوجهات الفكرية القادرة على جمع الأطراف، وتوظيفها لمصلحة البناء الجماعي الذي لا جدال أنه غدا الآن من الشروط الأولية للتواصل، وإرساء الأسس الأقوى لدولة المستقبل. ومن هو الذي تتوافر فيه شروط هذه المستجدات، ليس ذلك سوى هشام في ظروف تبديل المواقع والقيادات. هل يمكن للبحث أن يفترض أن هذه الأفكار كانت لربما تدور في رأس عبدالرحمن، المدرك لهذه التحولات، والمتسبب فيها إلى حد كبير، ليس هناك على أية حال ما يفترض نقيض ذلك. لعل السؤال المنطقي أمام هذه المعطيات هو التساؤل المؤدي إلى: لماذا إذن لم يعلن عبدالرحمن صراحة اعترافه بهذا التحول، والإعلان رسمياً باستحقاق هشام لقيادة الأندلس، في مرحلتها الجديدة؟ قد لا يكون هناك ما يدعو إلى الاستغراب، إذا لم يفعل هو ذلك. فعبدالرحمن قد وقف دون الاعتراف لأي واحد من ابنه بالترشيح الرسمي، فهو ألمح إلى سليمان، كما رأينا، وكذلك فعل مع هشام، كما مر بنا ذلك أيضاً، لكن دون الإعلان الرسمي عن ذلك. قد يكون لذلك أسباب، ولكن قد يأتي على رأس تلك الأسباب أن عبدالرحمن، برغم أنه كان يقرر مصير دولته، إلا أنه كان لربما يتصرف كأب؛ ففي مثل تلك الحالة تصبح التجاوزات الفطرية أمراً ليس هينا على التغاضي، كما فطن إلى ذلك باحث محدث.<sup>(٣٧)</sup>

(٣٧) عبد المجيد نعني، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦م)، ١٧٢.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

إن غلبة الموقف الأبوي على عبدالرحمن ، وصعوبة تجاوز الأكبر إلى الأصغر ،  
لربما أدى به إلى السكوت والإبقاء على قراره سرا ، وعدم البوح به جهرا ، ويلجأ عوضا  
عنه إلى إحكام جملة من التدابير السرية ، كما رأينا ، ليضمن وصول هشام بها إلى الحكم .

معلوم أن حفظ أشعار القدامى ليس شرطا مؤهلا لصاحبه لاعتلاء مناصب  
السياسة العليا ، وبالمثل أيضا ليس شرطا أن يكون الترشيح لمثل تلك المناصب من نصيب  
الملم بأيام العرب وذكر حروبهم . وفي المقابل أيضا ، إن انتفاء مثل تلك الشروط عن  
صاحبها ليس مانعا له من مثل تلك الاستحقاقات . إن هذا الأمر برغم بديهياته ، إلا أنه  
كان من أوليات دلائل الفروقات المرصودة بين الأخوين سليمان وهشام ، كما رأينا . وهذه  
الفروق وإن كانت دالة على توجهات أصحابها ، إلا أنها ، في الوقت نفسه ، كانت من  
الدلالات التي أخذ بها عبدالرحمن للحكم على ابنه . فعبدالرحمن الذي ربما كان  
يعايش مرحلة بناء القرار لمستقبل دولته ، كان يهيمه أن يلتمس مثل تلك الفروقات ؛ فهي  
بالنسبة له كانت تعني ، برغم بساطة تلك الدلالات ، دلائل جوهرية ، لاسيما إذا فهمت  
بمعانيها الدالة على صفات صاحبها ، فهي بهذا المنظور قد أظهرت أن هشاما كان ذا توجه  
إلى العلم والمعرفة ، بخلاف سليمان الذي ظهر بعده عن مثل تلك الاهتمامات ، يضاف  
إلى ذلك صورة الجدية والوقار التي عادة كان يمتلئ بها مجلس هشام ، والهزء والسخرية في  
المقابل الذي كان يملأ محيط سليمان .

في الحقيقة ، لم تنل مسألة تحول تفضيل عبدالرحمن لخلافته هشاما بدلا عن  
سليمان عنايتها المفترضة من قبل المؤرخين الذين لم تسجل مدوناتهم بخصوصها ما  
يستحق الإشارة إليها ، والاستناد عليها ، في مثل هذه القضية المهمة ، إن أقصى ما قدم من



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

هؤلاء رواية عامة تناقلها غير مؤرخ تقول إن سبب التحول إلى هشام يعزى إلى توسم عبدالرحمن الشهامة والاضطلاع في هشام.<sup>(٣٨)</sup>

إن التبرير المقتضب الأنف لا يعوزه الحجة فحسب، بل تضعفه عمومية إيجاءاته، فالقول بأن هشاماً أحرز الترشيح من قبل والده لولاية العهد لشهامته واضطلاعه تكاد توحي أن تلك الصفات كانت مقصورة عليه، وقاصرة عن سليمان؛ وهي صفات من الصعب إثباتها على مرء ونفيها عن آخر؛ إذ من الصعب القول بأن سليمان لم يكن ذا شهامة واضطلاع. لكن المهم هنا هو القول بأن عبدالرحمن قد استند على مثل هذه الصفات العامة، للقطع برأيه على استحقاق هشام لتولي الأمر من بعده، متجاوزاً بذلك ابنه الأكبر سليمان، لأنه في حالة الأخذ بمثل هذا الرأي، فإن ما ينتج عنه هو مساءلة عبدالرحمن في حكمة القطع في قراره، بهذه العجالة والسطحية؛ وهو أمر يتعارض مع الانطباعات التي تتوقعها من عبدالرحمن، الذي عرف بحيطته، وحذره الشديد لما يتعلق بدولته، أو من حيث الحرص على دقائق ما يكفل التواصل لدولته مستقبلاً.

إن غياب البراهين الدالة على أسباب تغيير موقف عبدالرحمن، فيما يخص من سيتولى أمر دولته من بعده، وكذلك ضعف الاهتمام الذي أبداه المؤرخون، لمثل هذا الأمر المهم، يدفع البحث إلى تبني آراء لمواجهة هذا الغياب، والضعف، بطرح فرضيات يفسر عليها استنتاجاته التي ترجح أنه لربما كانت لدى عبدالرحمن أسباب أكثر إلحاحاً،

(٣٨) ظهرت العبارة أولاً عند ابن الأثير، الكامل، ٥ : ٨٤؛ ثم توالى تكرارها عند الآخرين. انظر مثلاً: النويري، نهاية الأرب، ٧٣. ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين المحدثين لم يتخطوا هذا التفسير؛ انظر كمثل أيضاً، إبراهيم ياسر خضير الدوري، عبدالرحمن الداخل: سياسته الداخلية والخارجية (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢م)، ٣١٩.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

أدت به في نهاية التماس أولوياته، فيمن سيكون الأجدر والأصلح، في الأخذ بيد دولته من بعده، بأن يميل إلى هشام، ويراه الأنسب للترشيح.

لعله من الجائز هنا القول بأن صاحب تحقيق عبدالرحمن لإنجازاته العسكرية على أعدائه، في الأندلس، صاحبه تبلور فكرتين لديه: يمكن شرح الأولى منهما بالقول بأن كل انتصار عسكري كان يحققه على مناوئ من المناوئين الذين وقفوا بشراسة ضد إقامته دولة الأمويين في الأندلس، كان يجسد له، وعلى إثر كل انتصار، بأن الدولة التي صارع من أجل إقامتها قد غدت حقيقة ماثلة أمام عينيه. وتكرر الانتصارات بالمنوال نفسه كان يحرره تدريجيا من التزاماته العسكرية، ويخفف من قوة سيطرتها عليه. ولا جدال في أن هذا التحول كان عاملا ليس في تغيير نظرة عبدالرحمن لدولته، وتوجيه مخططاته المستقبلية بناء عليها فحسب، بل إن هذا التحول كان في الوقت نفسه أيضا، تحولا في الذهنية الأندلسية المعاصرة لها؛ فالدولة مع تلك التغييرات لا تقوم مكتسباتها الآن على القوة العسكرية، وسواعد الجيش فقط، وإنما تحتاج إلى سواعد من يبنون فيها قواعد الاستقرار، ويغذونها بما يساعدها على الاستمرار والتواصل.

لقد تعرض البحث آنفا إلى مسألة من كان الأنسب من الأخوين، سليمان وهشام، للأخذ بناصية الأندلس، وكذلك دولة عبدالرحمن من بعده، وبالأنسب عني البحث الذي توافقت توجهاته وميوله مع طبيعة المستجدات الذهنية التي طرأت على الأندلس إثر تخلص عبدالرحمن من أعدائه واحدا تلو الآخر.<sup>(٣٩)</sup> وفي هذا السياق، أيضا، سبق للبحث الإشارة إلى أن أهم فارق مميز لسليمان وهشام، كان في انتماء سليمان

(٣٩) بسبب الحيز المفروض على حدود البحث، فإننا لا نستطيع التوسع في ذكر طبيعة المناهضات التي واجهها عبدالرحمن وكيفية تغلبه عليها، ونكتفي عوضا عنه بالإحالة إلى ما يقوله ابن عذاري بصدها، انظر:

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

لعصبة العسكر الأندلسي، وانتماء هشام في المقابل لأهل العلم الأندلسيين، وقد ألمح البحث حينه إن إدراك عبدالرحمن لهذا الفارق كان لربما عاملا في تحويل ترشيحه من سليمان إلى هشام في ولاية العهد، وذلك بناء على مستجدات الدولة. وهذا قد يكون أقرب للقبول، إذ لم يكن منتظرا أن يستمر عبدالرحمن في ترشيحه لسليمان، فهو لو استمر في هذا لغدا الأمر تناقضا مع واقع دولته المتبلورة بعد تجاوزها لأطوارها العسكرية، لقد عُرف عن سليمان انتماءه إلى طبقة العسكرية الأندلسية، وبالأخص إلى المعسكر الشامي منه، فهو بسبب هذا الانتماء كان يلقب بـ "الشامي" وعبدالرحمن نفسه أقر بهذه الحقيقة في وصيته المعروفة.<sup>(٤٠)</sup> وعليه فإن عبدالرحمن لو أبقى على ترشيحه لسليمان، فإن ذلك كان يعني بطريق مباشر إعادة الحيوية للعسكرية الأندلسية؛ ولاسيما الفريق الشامي الذي ما فتئ يحارب عبدالرحمن، طوال أيام المجاهبات العسكرية. إن عبدالرحمن في تحوله عن سليمان كان لربما يتصرف بمقتضى إدراكه أن العسكرية الأندلسية؛ قد أمكن التغلب عليها، وعليه فهو لم يعد راغبا في أن يكون سليمان الوسيلة التي قد تمكن تلك القوة من العودة إلى المواجهة السياسية مرة أخرى.

ويلحق بالسبب السابق سبب آخر يتماشى معه في السياق والمضمون، وهو عامل الاختلاف في أماكن ولادة سليمان وهشام، وما لذلك العامل من دلالات لها علاقة بالمفاضلة بين الاثنين في استحقاق الترشيح لولاية العهد. فسليمان كان مولده في المشرق، وكان ابن أربع سنين أو نحوه، أيام سقوط الدولة الأموية، كما أخبرنا بذلك عبدالرحمن

(٤٠) "إن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له،" ابن عذاري، البيان المغرب، ٢: ٦١٠. وينبغي الإشارة هنا إلى أن ابن حيان، مؤرخ الأندلس، في الجزء من كتابه المقتبس الذي عثر عليه مؤخرا، والخاص بعصر حكم ابن هشام، يشير إلى سليمان بعبارة "سليمان الشامي"، ابن حيان القرطبي، المقتبس الثاني، طبعة فكسملية للمخطوطة (مدريد: الأكاديمية الملكية التاريخية، ١٩٩٩م)، ورقة ٢ للمخطوط، ص ٢ للطبعة.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

نفسه. ويذكر الراوون لمجريات تلك الوقائع، أن سليمان كان في معية أسرته الصغيرة، الفارة من ملاحقة العباسيين، في قرية الزاب، على نهر الفرات.<sup>(٤١)</sup> في تلك القرية، افترق سليمان عن أبيه، ومضى إلى أماكن، مختبئاً مع أمه، يرعاهم خادم عبدالرحمن بدر؛ وبعدهما تمكن عبدالرحمن من دخول الأندلس، وإقامة دولته فيها، أرسل فقيه الأندلس، معاوية بن صالح إلى المشرق في طلبهم، إذ لحق سليمان بأبيه في الأندلس.<sup>(٤٢)</sup> وبهذا الاعتبار، إن سليمان بغض النظر عن سنه، حينما لحق بأبيه في الأندلس، يمكن عده من طبقة المشرقين الوافدين على الأندلس. أما هشام، فكان من الطبقة المولودة في الأندلس، ومن أم أسبانية الأصل. فهو بهذا الاعتبار يعد من طبقة المولدين، أب عربي وأم أسبانية، اسمها "حلل"،<sup>(٤٣)</sup> وهو أول ولد يولد لعبد الرحمن في الأندلس.<sup>(٤٤)</sup>

(٤١) يشير المؤلف المجهول، صاحب أخبار مجموعة، إلى أن ولادة سليمان كانت بدير حنا، من كورة قنشرين، ووالده لا يزال غلاماً حدثاً ابن سبع عشرة سنة، ٥٣، كما يروي المقرئ، في النسخ، تفاصيل تلك الوقائع، ٣: ٢٧.

(٤٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ٥٥، هذا مع العلم بأن ابن القوطية يحدد أن الطلب كان بغرض إحضار شقيقات عبدالرحمن فقط، بينما يحدد النويري أن المرسل الذي أرسله عبدالرحمن كان لغرض إحضار سليمان، نهاية الأرب، ٦٣. وتلمح مصادر أخرى إلى أن لحاق سليمان بأبيه كان في القيروان، قبل دخوله الأندلس.

(٤٣) المقرئ، نصح الطيب، ١: ٣٣٤، ويرد اسمها مختلفاً عند عدد من المؤرخين مثل "حوراء" عند محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الحميدي الأزدي، جدوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ١٠، وجمال عند ابن عذارى، البيان المغرب، ٦١. وهي جارية كانت أهدته إياها ابنة يوسف الفهري، آخر ولادة الأندلس، بعد عفو عبدالرحمن عن أبيها، بعد معركة المصارة، وهي نفسها كان أبوها قد وعد بتزويجها له حال دخوله الأندلس.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

إن توجهات عبدالرحمن في سنوات قراره الأخيرة، كانت ولربما تميل إلى إعطاء عامل الاختلاف إلى كون سليمان معدودا من رعييل الوافدين إلى الأندلس، وهشاما من طبقة المولدين. ففي معيار هذا الاختلاف، كان سليمان، بانتمائه إلى طبقة الداخلين، يعد من طبقة أندلسية، كانت قد بدأت تدخل مرحلة النضوب؛ وذلك بسبب قلة الداخلين منهم إلى الأندلس، في الزمن المعنى به، وانحسار عدد الجيل الوافد القديم، وكان ذلك في مقابل نمو طبقة المولدين، الذين ينتمي إليهم هشام، عدديا. بمعنى آخر، لقد رمزت هذه المستجدات وكأن الأمر يتعلق الآن بين رعييل منحسر، أخذ في الضعف والانكماش، وهم رعييل المشرقين الوافدين إلى الأندلس، وآخر نام في عدده وقوته، وهم طبقة المولدين، لقد بدا الأمر أيضا وكأنه يرمز إلى المقارنة بين طبقة ماضية، وأخرى تتزايد اطرادا، لتشكل مستقبل الأندلس. وبين الماضي والحاضر، كان على عبدالرحمن أن يختار المستقبل، حيث توافرت الشروط في هشام أكثر من أخيه.

لقد أكد تحول قرار عبدالرحمن من سليمان إلى هشام كولي لعهد، تجاوبه ليس مع مستجدات أوضاع دولته فحسب، بل على استعدادده للتخلي عن تقليد أموي موروث، عُرف التزام الأمويين به أيام دولتهم في المشرق، ألا وهو تفضيل الابن الأكبر لولاية العهد، وكراهيتهم أيضا ترشيح أبناء الإماء لولاية العهد.<sup>(٤٥)</sup>

(٤٤) هشام، كما يورد ابن حزم، كان أصغر من سليمان بنحو اثني عشر عاما، جمهرة أنساب العرب،

تحقيق عبدالسلام هارون، ط ٥ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٩٤.

(٤٥) انظر دراسة عمر العقيلي حول الموضوع، "أسلوب تعاقب"، ١٥ - ١٨.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

لقد عرفنا أن سليمان كان الأكبر في ترتيب أبناء عبدالرحمن، "وأمه لخمية من ولد حاطب بن أبي بلتعة"،<sup>(٤٦)</sup> وهي عربية حرة. أما هشام، فقد عرفنا أن أمه كانت أمة أندلسية، من إماء بنت يوسف بن عبدالرحمن الفهري، آخر ولاة الأندلس. إن التفسير المعقول الذي يمكن منه فهم تجاوز عبد الرحمن لعاملي "الأكبر سنا" و"الأم العربية الحرة" يكمن لربما في انحصار رؤية عبد الرحمن، حين اتخاذ قرار التحول إلى هشام، والتجاوز عن سليمان، في التفكير في أولويات دولته، قبل أي اعتبار آخر؛ وفي هذا التوجه، لم يتخل عبدالرحمن عن التقاليد الأموية السابقة التي كان يُحرص عليها فحسب، بل تغاضى عن غريزة أبوية كانت تلزمه بمنح التفويض للأكبر سنا. لعله لم يكن سهلا لعبدالرحمن التحلل من مثل هذه الاعتبارات. ولعل الدليل على ذلك يكمن في سكوته عن إعلان قراره، وعدم البوح به علنا، بيد أن ما كان يهم عبدالرحمن، فوق هذه الاعتبارات الصعبة، سوى تحقق أمرين لا ثالث لهما: ألا وهما أن يسلم، أولا، ناصية دولته لطبقة المولدين، الذين كانوا بازدياد أعدادهم حينها، آخذين في تشكيل قاعدة القوة القادمة في الأندلس، وثانيا، الاطمئنان على أن يواصل هؤلاء السير بالدولة بعيدا عن نفوذ القوى القبلية العسكرية المنهكة، وفي هذا يلمح عبدالرحمن وكأنه كان ماضيا في بناء دولته الأموية في الأندلس على قاعدة أندلسية محلية جديدة، وليس على موروثاتها المشرقية السابقة.

يوظف ابن خلدون دلالة رمزية للتمييز بين أصحاب التوجه العسكري، وبين ذوي الميل إلى العلم بالإشارة إلى الفريق الأول "بأرباب السيف" وتعريف الآخر "بأرباب

(٤٦) ابن حزم، جمهرة، ٩٤. ويزودنا محمد بن حارث الحشني بتفصيلات يقول فيها إن عبد الرحمن تزوج من هذه المرأة، حيث ولدت منه ولدا، وهو سليمان، وابنة لحقت بأبيها مع سليمان، حيث توفيت في الأندلس ودفنت بمقبرة الرض، قضاة قرطبة (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ٢٤.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

القلم".<sup>(٤٧)</sup> وتطبيق هذا التمييز على توجه عبدالرحمن يتضح لنا من الوهلة الأولى أن عبدالرحمن الذي اعترف له غريمه الأول، رأس الدولة العباسية، أبو جعفر المنصور، بكل المزايا العسكرية،<sup>(٤٨)</sup> كان في حقيقته رجلاً قلما اضطر على أن ينحسب في قيود رجال السيف، فهو وإن برز كرجل سيف، إلا أن نفسه كانت تتحرى إلى أن تعبر عن نفسها كرجل قلم. لقد برهن عبدالرحمن على أنه متى ما سكنت السيوف، فإنه كان من المولعين بالأدب والعلم، والعاملين في ميادينها، والمقدرين لرجالها، حتى كأننا نلمس أن تلك الرغبات كانت تنحسب في صدره وقت اضطراره لحمل السيف، وتنطلق متى ما أعاده إلى غمده. لقد عبر في أوقات سلمه، وهي تحديدا أعوام حكمه الأخيرة في الأندلس، عن مكنونه الفكري شعرا وثرًا، وقدم نفسه مساهما في المساجلات التي دارت بينه وبين علمائه ورجاله، ولا غرو وكتعبير عن هذا الأمر، أن أفرد له المقري فصلا في كتابه، يشير فيه إلى فسحة العلم عنده.<sup>(٤٩)</sup>

لا شك أن الظروف العسكرية الصعبة التي عاصرها عبدالرحمن إبان دخوله الأندلس كانت تحول بينه وبين التنفيس عن نفسه فكريا. ولعل مما كان يصعب من موقفه هذا شعوره بأن مرور الزمن عليه، وهو يحمل السيف، كان يقلل من فرصه في تحقيق تطلعاته في هذا الجانب، ويستنهك الوقت اللازم له، كما يلح عليه بأن ما بقي من أيامه لن يسعفه في زرع، حتى بعض القليل منه، في دولته التي أقامها في الأندلس.

(٤٧) ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، نشرة خليل شحاته وسهيل زكار (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٣١٨.

(٤٨) لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال (الرباط: مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٣٤م)، ١٠.

(٤٩) المقري، نصح الطيب، ٣: ٣٧-٥٤؛ انظر كذلك دراسة خالد الصوفي حول الموضوع، تاريخ العرب في الأندلس: عصر الإدارة، ٢ (منشورات جامعة قارونوس - كلية الآداب، ١٩٨٠م)، ١٠٠-١٠٦.

من الواضح أن عبد الرحمن كان يملؤه الشعور، لاسيما في أواخر سنوات حكمه، أن الأندلس قد بدأ يتشكل فيها نوع من القاعدة العلمية، خاصة مع وفود بعض من العلماء المشرقين إلى الأندلس، وكذلك عودة عدد من الطلاب الأندلسيين الذين ارتحلوا منها إلى المدينة للدراسة على يد عالم دار الهجرة الإمام مالك بن أنس، من أمثال الغازي ابن قيس، وأبي موسى الهواري، ومصعب بن عمران الهمداني، ومعاوية بن صالح الحضرمي، ومحمد بن بشير المعافري.<sup>(٥٠)</sup> وقد أغرى دخول هؤلاء بعلومهم الأندلس نفرا من طلاب العلم الأندلسيين للأخذ منهم، ومن ثم بذر البذور الفكرية الأولى هناك، ومن آثار ذلك أن الأندلس كانت عندئذ قد بدأت تدخل مرحلة فكرية نشطة، كانت في حاجة للرعاية، خاصة من حكامها، لكي تحقق النمو والتواصل مستقبلا.

إن طبيعة نشأة دولة عبدالرحمن، والظروف السياسية والعسكرية المقيدة لمسارها، وكذلك غياب القاعدة العلمية القادرة على الاستيعاب، ومن ثم الاستفادة من رعييل أولئك العلماء، جعل الانتفاع بهم مقصورا على تعيين بعضهم في مناصب مستحدثة، مثل تعيين بعض هؤلاء في مناصب قاضي الجماعة وغيرها.<sup>(٥١)</sup> بيد أن الجانب الإيجابي الذي نتج عن وجود هؤلاء العلماء، أن بعضهم التمس البادرة في عقد حلقات الدروس في المسجد الجامع الذي بناه عبدالرحمن في قرطبة، ليحركوا بذلك سكون العلم، ويشيروا بين أوساط طلاب العلم قدرا من الاهتمام بتثقيف علومهم وإضافة المزيد عليها.

(٥٠) انظر في مواضيع تراجمهم، الحشني، *قضاة قرطبة*، كذلك: القاضي عياض السبتي، أبو الفضل عياض ابن موسى بن عياض اليحصبي، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مالك*، تحقيق أحمد بكر محمود (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧م)، ١: ٢٠٢ - ٢٠٣؛ أيضا: أبا بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م)، ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٥١) الحشني، *قضاة قرطبة*، ١٤؛ ويشير الحشني إلى أن القاضي قبل عبدالرحمن كان يعرف بقاضي الجند؛ انظر كذلك: محمد بن عبدالوهاب خلاف، *تاريخ القضاء في الأندلس*، من *الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي* (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ٢٨ - ٣٤.



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

إن انسياق غير عامل مع بعضه، وتوافر الميل النفسي لعبدالرحمن نحو العلم وكذلك الرغبة في زرعها في الأندلس، تكون قاعدة علمية للأندلس على النحو الذي أشرنا إليه، كان لا شك دافعا لعبدالرحمن ليحول مسار دولته من مسارها العسكري، وتوجيه دفتها إلى ما يتوافق مع قناعاته بأن دولته ماضية في طريق استقرارها. لقد أدت الدولة واجها العسكري، وبفضل هذا الإنجاز أمكن توحيد الأندلس في دولة واحدة، بعد أن كانت تفتقر إليها منذ الفتح. ولكن برغم أهمية تلك الإنجازات، إلا أن الدولة المتكاملة الأركان في نظر عبدالرحمن كانت، وهو الذي أدرك دولة جده هشام بن عبدالملك وهو يافع مدرك،<sup>(٥٢)</sup> لا تكتمل حساباتها وصورتها في الإنجاز العسكري، والوحدة السياسية فحسب، فثمة ما يبقى ناقصا، لاسيما إذا قورن تكامل جوانب الدولة بما اختبره وشاهده في بلاط جده، إذ ليس هناك خلاف في أن الخلافة الأموية في عصر هشام بن عبدالملك كانت تعيش ذروة تكاملها الشامل؛ فهي كانت قد تجاوزت مراحلها العسكرية (ذروة الفتوحات)، في عصر الوليد وسليمان ابني عبدالملك، ومن بعدهما. ومنذ أيام عمر بن عبدالعزيز، وأخيرا أيام هشام، كانت الخلافة تعيش إنجازاتها العمرانية والإدارية والفكرية. هناك إذن احتمال بأن صورة تلك الهيئة المثالية لماهية ما ينبغي أن تكون عليه الدولة المتكاملة كانت راسخة في ذهن عبدالرحمن، وعليه وفي كل فرصة أتت إليه، أخذ يحدث ما يشابهها في دولته الأندلسية؛ وكمثال لذلك نظم الإدارة في دولته، على غرار إدارة جده، بالاعتماد على الموالي الأندلسيين، أصحاب الخبرة العملية مع الأمويين في المشرق، أمثال أسر بني عبدة، والزجال، وشهيد؛ كما أنه بنى قصره في قرطبة، باسم الرصافة، على غرار قصر جده، في دمشق، وزاد عليه بإنشاء "الغوطة"،

(٥٢) بعد مقتل أبيه معاوية بن هشام بن عبدالملك، تربى عبدالرحمن في كنف جده هشام، المقري، نفح

الطيب، ٤٨ : ٣، أيضا ١ : ٣٣٣.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

منتجع جده أيضا. وأخيرا، عمّر جامع قرطبة، على غرار الجامع الأموي، في دمشق<sup>(٥٣)</sup>. وإذا كان عبدالرحمن قد حلم بمحاكاة دولة جده، في كل ما اشتهرت به، فلماذا إذن لا يكون زرع العلم في دولته جانبا من جوانب تلك المحاكاة، وقد عُرف اهتمامه بهذا الجانب أصلا.

لقد أشرنا من قبل إلى أن عبدالرحمن لربما كان يدرك أن الوقت المتبقي له لن يسعفه لكي يحقق للأندلس جانبها المبتغى، وهو الجانب الفكري. ومع تجسم هذا الشعور عنده، بدأ عبدالرحمن يدرك، وقد عرف ميول هشام الفكرية، بأنه سوف يكون الأنسب، لكي يحقق للأندلس هذا الجانب الذي لم يتمكن هو نفسه أن يحققه لها. ومن الجائز هنا أن تفضيله لهشام يمكن إدراكه من هذا السبب، فهشام بدا بميوله وقدراته الفكرية وكأنه الأنسب والمتوافق مع خطته التي كان يأملها للأندلس من بعده؛ وعليه فإن ما تقصاه عبدالرحمن عن ابنه، أظهر أن هشاما هو الأقرب لسد ما نقص عن دولته مستقبلا.

لقد ارتبطت حياة هشام، من خلال ما روي عنه بهذا الخصوص، وعلى النقيض من سليمان، بعلاقات حميمة دائمة مع علماء الأندلس. وعلى الرغم من قلة ما هو متوافر للبحث من قرائن، إلا أن هذا القليل فيه الدلالة الكافية في هذا الشأن، يروي الحشني قائلا إن "هشام بن عبدالرحمن رحمه الله: لما أدرك وخرج من القصر إلى داره، وانتهى إليه زهد مصعب بن عمران وورعه، فاستجلبه إلى نفسه، واستخلصه، وجعله وزيره وسميره"<sup>(٥٤)</sup>. وكان الأحرى بسليمان أن يقرب إليه مصعب بن عمران؛ وذلك

(٥٣) انظر: خليل إبراهيم المعقل، "أثر الجامع الأموي بدمشق على عمارة المسجد الجامع في قرطبة"، *الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات* (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٣: ١٧٩.

(٥٤) الحشني، *قضاة قرطبة*، ١٤.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

بسبب صلة القرى التي كانت بينه وبين هذا العالم، فأم سليمان، التي سبق لنا تعريفها بأنها كانت امرأة من بني حاطب بن بلتعة، كانت شقيقة أم مصعب.<sup>(٥٥)</sup>

فضلا عن الاحتمالات السابقة التي طرحت، كأسباب لنيل هشام أفضلية الترشيح من قبل أبيه، لخلافته في إمارة الدولة الأموية، في الأندلس، يورد المقرئ رأيا في سبب الترشيح يمكن ضمه إلى جملة الأسباب الآتية، فعلى حسب قوله: إن عبدالرحمن كان يرى في هشام أنه الأصلح لتهدئة الأمور، والالتفات إلى مطالب الناس.<sup>(٥٦)</sup> وعلى الرغم من أن ما يذكره المقرئ لا يضيف جديدا لما نعرفه مسبقا عن أخلاقيات هشام، إلا أن القول إذا نظر إليه من منظور عبدالرحمن، فإنه لربما يحمل دلالة يمكن ضمها إلى الدلالات السابقة، في تفضيله لهشام. ففي مرحلة التوجه إليه، كان عبدالرحمن يرى في هشام صفة إضافية تتوافق مع نظريته الخاصة لدولته، ألا وهي القدرة على تأليف القلوب وتهدئة الأحوال. فالدولة في أيامها القادمة لم يكن ينتظر من رجالها، ولا سيما قادتها، المواجهة وخوض المعارك، بل كان ينتظر منهم الميل إلى السلم والاحتواء، فقد انقضت دولة السيف، وأقبلت دولة البناء، بمعنى رحل عصر التمزق، وحل بدله عصر التآلف والوحدة.

سيظل البحث مبتورا إذا لم يشفع بالإجابة عن السؤال الذي عنونا به فصلنا الحالي. لقد بنى البحث طروحاته طوال الفصول السابقة على تحري الأسباب التي أدت بعبدالرحمن بن معاوية (الداخل) إلى تفضيل ابنه هشام لولاية عهده، متجاوزا به أخاه الأكبر سليمان. وقد انحصرت المبررات التي قدمت كإجابة عن جملة التساؤلات، في أن

(٥٥) المقرئ، نصح الطيب، ١: ٣٣٨.

(٥٦) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ١١.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

عبدالرحمن رأى توافقاً بين توجهات هشام وميوله الشخصية، والمسار الذي فضله لدولته من بعده. وبناء عليه، فقد عُقدت عليه جملة من الآمال والتوقعات بأنه هو الأصلاح والأكفأ والأنسب لحمل مسؤوليتها مستقبلاً. ومع مجمل الأحكام العامة التي دار النقاش حولها، أكد البحث على تميز هشام بالاهتمام الفكري، وتوقع عبدالرحمن للسبب ذاته بأنه هو الأقدر للأخذ بيد الأندلس صوب هذا المنحى. ولهذا السبب، في المقام الأول، فإن هدف البحث هنا سيكون منصباً على متابعة هشام وأعماله، وتقويمه على أساس نجاحه من عدمه في تحقيق التوقعات والآمال التي عقدت عليه.

من الإنصاف، وإحقاقاً للحق، ينبغي علينا الاعتراف بأن الركيزة الأساس التي بنى عليها هشام أعماله من أجل تحقيق ما كان متوقفاً منه أن يحقق، يعود الفضل فيه إلى عبدالرحمن نفسه. في الحقيقة، لقد كان الإنجاز الأكبر الذي يحسب لعبدالرحمن، فضلاً عن أهمية إقامته الدولة الأموية في الأندلس، نجاحه في إضعاف أعداء دولته، وقطع دابر قوتهم. وقد جنى هشام الفائدة الأولى من هذا الأمر؛ فعندما تولى حكم الأندلس، لم تجابهه سوى مناهضات خاصة لا تمثل شيئاً بالمقارنة إلى المناهضات التي تصدى لها والده. ولعل أفضل مثال لتلك الحركة التي قام بها مطروح بن سليمان الأعرابي في سرقسطة<sup>(٥٧)</sup>. فشتان بين هذه الحركة التي كانت أشبه ببقايا الرماد، وحركة أبيه الخطيرة على عبدالرحمن، كما مرّ بنا. وفي مقابل اعتناق دولة هشام من أعدائها المعدودين، أُجبرت الدولة على مواجهة خطر عائلي داخلي. قد يكون عبدالرحمن قد توقع حدوثه، وهو حركة إخوان هشام، سليمان وعبدالله، وذلك في حركة عصيان أشعلها الاثنان ضد

(٥٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢: ٦٢.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

(٥٨) أخيهما في طليطلة، مركز قوة سليمان، "مضرية ويمانية"، كما وصفها ابن عذاري. ولقد مكن قضاء هشام على حركة أخويه، إحياءه تقليدا أمويا معروفا للأمويين في المشرق، في الغزوات المعروفة بالصوائف، على تخوم الإمبراطورية البيزنطية. فالمصادر تورد أخذ هشام البادرة لغزو مناطق نصارى الشمال في الأندلس، في مناطق ألبه، والقلاع، وجيلقيه، وحتى تخوم دولة الفرنجة، مثل أربونه؛<sup>(٥٩)</sup> وهي مناطق لم يتمكن عبدالرحمن من الالتفات إليها، لانشغاله بأعدائه داخل الأندلس.

من هذا يحق لنا القول بأن هشاما لم يرث حكما هائلا من أبيه فحسب، بل استهل حكمه بمبادرات لم يتمكن عبدالرحمن نفسه من القيام بها، ومحصلة القول هي أن عبدالرحمن هيا لهشام أرضا مهيأة للبذر، وما كان على هشام سوى استزراعها، وإنبات ثمارها.

في هذا الصدد يمثل حرص هشام على تكملة توسعة مسجد قرطبة التي شرع عبدالرحمن في بنائها، دلالة أخرى على تداخل العهدين، ووحدة أهدافهما. فعبدالرحمن وإن كان قد هدف من بناء المسجد، على أرض مسجد، كان قد أنشئ في موقعه قديما، منذ أيام ثاني ولاية الأندلس، أيوب بن حبيب،<sup>(٦٠)</sup> إلى بناء مسجد جامع يلبي حاجة سكان عاصمته، إلا أن المسجد وفي أواخر أيامه غدا أيضا مركزا للتبادل الفكري؛ حينما عقدت حلقات الدروس فيه، وأقبل على الحلقات طلاب العلم، سواء

(٥٨) يقدم ابن عذاري معلومات وافية عن سير هذه المواجهات وكيفية القضاء عليها، البيان المغرب، ٢: ٦٢ - ٦٣.

(٥٩) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ٦٣ - ٦٤.

(٦٠) انظر بحثنا "رؤية جديدة لولاية أيوب بن حبيب اللخمي وأسباب نقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد (تحت النشر).

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

من قرطبة أو خارجها، ليضاف بذلك مهمة أخرى إليه، فضلا عن صفته كمسجد جامع، وهي مهمة جامعة قرطبة؛ وهو دور اضطلع به المسجد، في عصور الأندلس اللاحقة. ولعل هشاما، وهو مدرك أيضا للتوقعات المعقودة عليه، رأى في توسعة المسجد، وإضافة مساحات فيه، توافقا مع مهماته المضافة. ويخبرنا المقرئ أن هشاما انتفع من غنائم غزوات مناطق نصارى الشمال، في الصرف على تكملة بناء الجامع، وترميم منشآت عمرانية أخرى في قرطبة، مثل قنطرة قرطبة، على نهر الوادي الكبير.<sup>(٦١)</sup>

إن أعمال هشام التي أُلحنا إليها آنفا، لا تعبر على أية حال عن خصوصية كانت متوافرة فيه دون غيره، إذ ليس هناك ما يمنع من الافتراض أن سليمان لو كان هو المتولي للأمر بدلا من هشام، لما قام بغير ما قام به هشام، فتلك الأعمال وإن توافقت مع ما كان مأمولا من هشام، إلا أنها بصورة أخرى كانت أعمالا يفترض أن يقوم بها أي حاكم، متى ما دعت الحاجة إليها.

لقد ألمح البحث غير مرة إلى أن أحد الأسباب المهمة لوقوع الاختيار على هشام لخلافة أبيه هو ما عُرف عن توافر صفات وتوجهات خاصة فيه. ويقدم المؤرخون صورا عديدة عن تلك الصفات والتوجهات؛ مما يساعد ليس على فهم شخصيته بعمق فحسب، بل على تقويم أثره في الأعمال التي قام بها خلال حكمه القصير للأندلس (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م). وفي هذا الشأن يلمح بعض المؤرخين إلى صفات الجدة والتقوى والحرص على مصالح الرعية؛ بيد أن هؤلاء، وهم يعدون تلك الصفات فيه، يعزون سبب اتصاف هشام بها يعود إلى نبوءة تنبأ بها أحد المنجمين بأن مدته في

(٦١) المقرئ، نصح الطيب، ١: ٣٣٧ - ٣٣٨؛ ويشير المؤلف المجهول إلى أن رجلا أوصى - في زمن هشام - بمال في فك سبية من أرض العدو، فطلبت فلم توجد، احتراسا منه بثغره، واستنفاذا لمن سبى، وضعفا من عدوه عنه، أخبار مجموعة، ١٠٦.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

الحكم ستكون ثمانية أعوام أو نحوها.<sup>(٦٢)</sup> إن معرفتنا بأسبقية اتصاف هشام بتلك الصفات من قبل توليه الحكم، كما ألمح البحث إلى ذلك سابقا، يدفعنا إلى التقليل من واقعة النبوة، كعامل لتحول هشام إلى الصفات الحسنة التي عُرف بها؛ فالسمات الأخلاقية التي اتصف بها، إبان توليه الحكم، لم تكن بأي حال طارئة عليه، ولكنه كان متصفا بها، كما تؤكد على ذلك المعلومات المتواترة عنه في أيام شبابه؛ ولكن فيما يبدو أن ما أغرى الذين قبلوا بقصة النبوة، هو الخلق النادر الذي دونته الكتابات التاريخية عنه، إذ يندر أن تتحدث مدونة عن هشام إلا وتبرز الجانب الأخلاقي النادر فيه.<sup>(٦٣)</sup> وغالبا ما شبهه في سيرته بالخليفة عمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنه؛ الأمر الذي عدّه ابن الأثير مبالغة من المؤرخين لهشام، مع أنه هو نفسه يفيض في تعداد حسناته وصفاته.<sup>(٦٤)</sup> ومن نافلة القول هنا إن هشاما كان لقب من قبل أهل الأندلس بـ "الرضى" أو "الرضا"، كناية عن رضا الناس عنه. وقد علق على ذلك ابن حزم الأندلسي بقوله: "بأن هشاما انفرد عما سواه من الأمويين بلقب منح له، وليس معلنا، كما هو الحال عند الآخرين".<sup>(٦٥)</sup>

(٦٢) الضبي، المعجم، انظر كذلك سياق الرواية عند المقرئ، *نصح الطيب*، ١: ٣٣٤ - ٣٣٥. وقد رد هشام على تلك النبوة بقوله: يا ضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك، والله لو أن هذه السنوات كانت في سجدة لله تعالى لقلت طاعة له". ويستطرد المقرئ قائلا: "إن هشاما زهد في الدنيا، والتزم أفعال الخير".

(٦٣) من الصعب استعراض جميع ما قيل عن هشام وصفاته، ومن الإطالة أيضا ذكر الإحالات، وعليه فنحن نكتفي بما قاله ابن عذارى، *البيان المغرب*، ٢: ٦٥ - ٦٦، ففيما قاله الكفاية وكذلك مثال لما أطنب فيه المؤرخون.

(٦٤) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٥: ٤٨٠.

(٦٥) ابن حزم، *نقط العروس في تواريخ الخلفاء*، نشر ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م)، ٤٨.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

ولعل من الأسباب التي أدت إلى ترسيخ صورة هشام المرضية عند المؤرخين، هو إقرانه النوايا الحسنة بالعمل، والشواهد الدالة على هذا الجانب هي في الحقيقة غنية ومتعددة. ابن عذارى، مثلاً، يختم حديثه عن هشام، ناقلاً مما كان يتواتر عنه: "أدركت صدرا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يعلم لها مثل، وكان يحضر الجنائز، ويزاحم فيها، كأنه أحد من الناس، تواضعاً."<sup>(٦٦)</sup> ويزيد صاحب أخبار مجموعة: "وكان هشام يصبر الصرر بالأموال، ويبعث بها في ليالي المطر والظلمة إلى المساجد، فتعطى من وجد فيها، يريد بذلك عمارة المساجد."<sup>(٦٧)</sup> ولم تكن أعماله تلك تقتصر على قرطبة وبعض مدن الأندلس الكبرى، بل تشمل النواحي أيضاً، ويشير المقرئ إلى هذا بقوله: "وكان - هشام - يبعث بقوم من ثقافته إلى الكور، فيسألون الناس عن سير عماله، ويخبرونه بحفائدها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم، أوقع به وأسقطه، وأنصف منه، ولم يستعمله بعد ذلك."<sup>(٦٨)</sup> وقد أثار عن هشام قوله: "إن النصفة للمظلوم لا تكون من الظالم دون تسليط الحق عليه."<sup>(٦٩)</sup> وقد اعترض له يوماً متظلم من أحد عماله... فبعث إلى الشاكي، وقال له: "أحف عليّ كل ما ظلمك فيه."<sup>(٧٠)</sup>

(٦٦) ابن عذارى، البيان المغرب، ٢: ٦٢.

(٦٧) المؤلف المجهول، أخبار مجموعة، ١١٠؛ ويضيف ابن عذارى "أن هشاماً كان يقوم بالمهمة بنفسه، حيث يخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد،" البيان المغرب، ٢: ٦٦.

(٦٨) المقرئ، نصح الطيب، ١: ٣٣٦.

(٦٩) انظر الواقعة التي قيلت العبارة فيها، المؤلف المجهول، أخبار مجموعة، ١١٠.

(٧٠) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ٥٧.



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

إن بلوغ الحرص حداً عالياً في هشام في سبيل إرضاء الآخرين من اليسير الاستدلال عليه من غير رواية تلمح إلى قوة الرغبة عنده، حتى تكاد تقترب مع راحته النفسية في تحقيقها. فهو مثلاً، فيما يبدو، كان قد بقي في نفسه شيء لما أوقعه على الشاعر أبي المخشى من سمل عينيه، أو قطع لسانه، كما مر بنا ذلك، وعليه، "فإنه حينما صار الأمر إليه، رحمه الله، بعث به، إذ كان غمه ما حدث عليه بسببه، فأعطاه الدية مضاعفة."<sup>(٧١)</sup> ولكن برغم قوة الدلالة التي نستشفها على رحمة هشام فيما انتهى إليه الأمر بينه وبين أبي المخشى، إلا أن واقعة ما حدث إثر تجديده لقنطرة قرطبة، تظل برهاناً أقوى على ما كان يبديه هشام من حرص زائد على إرضاء الناس؛ وإن كان ذلك تضحية منه براحته الخاصة. فمما يروى في هذا الشأن، أنه قال يوماً لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟ أي في شأن القنطرة، فقال، يقولون: ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه، فألى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها، فلم يمر عليها بعد، ووفى بما حلف عليه.<sup>(٧٢)</sup> ولعل من المستحسن أن نختتم حديثنا عن فضائل هشام بإثبات حسنة محسوبة له، وهي أنه "لم يُقتل أحد من جنده في شيء من ثغوره أو جيوشه إلا ألحق ولده في ديوان أرزاقه."<sup>(٧٣)</sup>

(٧١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ٥٧.

(٧٢) المقرئ، نصح الطيب، ١: ٣٣٨. ويروي ابن الخطيب مضيفاً أن هشام حينما بلغه ذلك، حلف أن لا يجوز عليها إلا لغزو في سبيل الله أو مصلحة. والمثير للانتباه هنا هو تعليق ابن الخطيب للواقعة بقوله إن هذا هو شأن الناس مع أرباب الدول، واستشهد بقصة الرجل وابنه وحمار لهما، وما كان من مواقف الناس منهما، الإحاطة، ١: ١٢٠.

(٧٣) المؤلف المجهول، أخبار مجموعة، ١٠٦.

إن الإقبال النفسي من هشام تجاه الآخرين كان لا بد أن يثمر عن تلاقح حميم بين الطرفين، يجني منه الجانبان الفوائد المتوقعة، ولا ريب أن هشاما كان المنتفع الأكبر من المواقف الصادقة التي قدمها المخلصون له، لا سيما في المواجهات العسكرية التي خاضها ضد أعدائه، ففي معظم تلك المواجهات كان للمواقف المخلصة التي أظهرها أهل الأندلس تجاهه أثر واضح في تقرير نتائج معاركه؛ فالمالون له كانوا دوما يتفانون في الوقوف معه، والثبات على نصرته. ولعل المثال الواضح لذلك هو موقف أهل قرطبة، التي وصلها سليمان بجيش، بعد أخذه طريقا مخالفا لطريق أخيه هشام، الذي كان قد سار بجيشه حينه إلى طليطلة لملاقاة سليمان هناك. ويخبرنا ابن عذاري: أن سليمان تمكن من احتلال شقندة - الربرض لاحقا - وهي الضاحية الجنوبية لقرطبة، مما يلي نهر قرطبة، - الوادي الكبير - ، بيد أن هشاما، الذي سمع بالخبر، لم يكتف بذلك، إذ إنه كان واثقا من إخلاص أهل شقندة له، وقد تجلّى ذلك بهزيمة أهل شقندة لسليمان، وتمكنهم من رده عن قرطبة.<sup>(٧٤)</sup> وقد لخص كوندي العلاقة المتميزة التي اتسمت بها علاقة هشام بأهل الأندلس بقوله: لقد هابه أعداؤه، وأحبته رعيته.<sup>(٧٥)</sup>

كان التوجه العلمي البارز في شخصية هشام عاملا مقورا، كما أكد على ذلك البحث مرارا، لترشيحه من قبل أبيه لولاية العهد. بيد أن وصول البحث إلى نقطة الحديث عن أعمال هشام في هذا الجانب، كجزء من الآمال التي علقت عليه في أن يكون الأنسب على توجيه الأندلس إلى وجهتها الفكرية، تعترضه صعوبات تتمثل في ندرة المعلومات وفقرها، الأمر الذي لم يشتك منه البحث كثيرا حين التعرض إلى الجوانب الأخرى من صفات هشام وتوجهاته. وليس هذا فحسب، بل يضطر البحث في سبيل توفير معلوماته

(٧٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢: ٦٢.

(٧٥) Condy, *History*, 1:230.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

إلى اللجوء إلى مصادر ثانوية إسبانية، نظرا لأن المصادر العربية التي أسهبت دوما في الحديث عن هشام وأعماله، تجاهلت الحديث عنه، كراع للعلم والعلماء. ويبرز ج. كوندي J. Condy، المؤرخ الأسباني، كموفر وحيد لكثير من المعلومات التي تتحدث عن نشاطات هشام وجهوده في توجيه المسار العلمي للأندلس. ولعل أهم المعلومات التي يذكرها في هذا الصدد هي المعلومة التي تتحدث عن اهتمامه بفتح المدارس، إذ يقول: إن هشاما بدأ حكمه بالتشجيع على إنشاء مدارس الأطفال في الأندلس.<sup>(٧٦)</sup> وبرغم أهمية المعلومة، إلا أن كوندي كعادته، في أغلب مروياته، لا يوثقها بالإشارة إلى مصدرها، كما أنه لا توجد في المصادر العربية، في المقابل ما يقويها أو يدحضها. ولكن برغم هذه المعضلة إلا أن البحث لا يرى سببا داعيا لتجاهل مثل تلك المعلومة أو التقليل منها، لأن المعلومة تتوافق مع ما نعرفه عن ميول هشام أصلا، وكذلك مع الانطباع المكون عنه كمشجع للعلم. ولعل هذا ما رضي به المؤرخون المحدثون عندما أخذ به بعضهم كأمر مؤكد يندرج في أعمال هشام العلمية.<sup>(٧٧)</sup>

لكن كوندي يزيد معضلة التعامل معه، بإيراده معلومة أخرى على قدر عال من الأهمية، ليس من اليسير لمهتم بالحياة العلمية في الأندلس، في عصر هشام، أن يتجاوزها. تقول المعلومة إن الأمير هشاما إبان تشجيعه لإقامة المدارس في الأندلس، أمر أن تكون لغة التعليم فيها باللغة العربية، ويستطرد كوندي مضيفا: أن هشاما أشفع أمره

Ibid., 1:239. (٧٦)

(٧٧) خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس: أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر مكي (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ١٣. انظر كذلك: جورج المقدسي، نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، ترجمة محمود سيد محمد (جدة: مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤١٤هـ).

بأمر منع فيه أطفال النصارى من الكتابة بلغتهم اللاتينية والتحدث بغير العربية.<sup>(٧٨)</sup> مرة أخرى، المصادر العربية لا تشير إلى شيء بهذا الخصوص، ولا يمنع ذلك مرة أخرى، أيضا، من قبول مايقوله كوندي، ولنفس الأسباب السابقة أيضا. على الظن أن كوندي ربما أنه استقى معلوماته من مصادر أسبانية كانت متوافرة له، إذ إن الاحتمال الوارد هنا أن قرارا مثل هذا لا بد أنه كان مثيرا لردود أفعال قوية بين أوساط نصارى الأندلس، وبناء عليه، كان لا بد أن يكون مثار اهتمام مؤرخيهم، على النقيض من المؤرخين الأندلسيين الذين ربما لم يروا فيه ما يستحق الإشارة إليه والاهتمام به. فضلا، وكما هو معروف للمتابع في هذا الجانب، عن أن عصر هشام هو في الواقع من العصور الأندلسية المبكرة، التي لا يتوافر عنها الكثير. وما كتب عنه، إما هو مفقود أو في حكم المفقود.

لكن ومع الافتراض بصحة رواية كوندي، على أية حال، فإن هذا يعني، أن اللغة العربية قد اكتسبت بهذا القرار الجريء الرعاية الرسمية لنشرها في الأندلس على يد هشام. وعليه، فإنه يمكن اعتبار ذلك بداية للجهود الرامية لتعريب لسان أهل الأندلس جميعهم إلى الوجة العربية - الإسلامية. إن أمرا مثل هذا لا بد أن نتصور أنه كان مثيرا للرفض والاحتجاج الجاد بين أوساط غير المسلمين في الأندلس؛ لكن في المقابل أيضا صدور أمر هشام بهذه الصفة، ومن ثم الإصرار عليه، كان سيؤدي حتما إلى آثار عميقة للمسار العلمي في الأندلس، قد يكون التماس نتائجه واقعا معروفا، إن لم يكن في عصر هشام نفسه، ولكن حتما في العصور اللاحقة لعصره.

الأمر الآخر المثير للانتباه، فيما يتعلق بدور هشام في رعاية العلم في الأندلس هو العلاقة الحميمة التي كانت قائمة بينه وبين علماء عصره، منذ أن كان شابا، وترسخ متانة العلاقة مع توليه الحكم. لقد سبق للبحث الإشارة إلى جملة من الشواهد لذلك. ولكن

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

ومع وصول هشام إلى الحكم، يزداد التأكيد عليه بصورة أشمل؛ ففي معرض دراسته لهذا الجانب، يشير حسين مؤنس، مستخلصا من براهين عدة، أن علاقة هشام بعلمائه، كانت متلاحمة إلى حدّ أن قراراته بدت وكأنها تعكس رغباتهم وتوجهاتهم.<sup>(٧٩)</sup> وأدى ذلك، كما يقول مواصلا، إلى اكتساب هشام محبة ورضى علمائه؛ مما حدا بهم إلى إظهار جوانبه الحسنة، والتغاضي عن الجوانب المعكّرة لها.<sup>(٨٠)</sup>

لقد سبقت الإشارة إلى تكوّن نواة لطبقة من العلماء في الأندلس، وفي قرطبة على وجه التحديد، في أواخر سنوات حكم عبدالرحمن، ممن وفدوا إليها من الشام. كما سبق للبحث التنويه على أن هؤلاء العلماء حركوا النشاط الفكري في قرطبة، عندما جلسوا للإقراء في مسجد قرطبة؛ مما نتج عنه ظهور رجيل أول من طلاب العلم الأندلسيين، من أمثال يحيى بن يحيى الليثي، وزياد بن عبدالرحمن، المعروف بـ "شبطون"، وعيسى بن دينار، ويحيى بن مضر، وطالوت بن عبدالجبار.<sup>(٨١)</sup> وقد تعززت المكانة العلمية لبعض هؤلاء الطلاب، عندما لم يكتفوا بما حصلوا عليه في الأندلس، وفضلوا الارتحال إلى المدينة، للسمع من إمام دار الهجرة، الإمام مالك بن أنس. وبعد تحقيق ما ارتحلوا من أجله، عادوا إلى الأندلس، في مقتبل عصر الأمير هشام بن عبدالرحمن، يحملون معهم مذهب المالكية وكتاب الموطأ.

إن تجمع هذا النفر من العلماء الأندلسيين، أو هؤلاء الذين يمكن تصنيفهم بـ "شيوخ المالكية" أو الرجيل الأول من فقهاء المالكية، وبمؤهلاتهم العالية تلك، في قرطبة،

(٧٩) حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥م)، ٩ - ١٩.

(٨٠) مؤنس، شيوخ العصر، ١٩.

(٨١) ترجم ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي، في كتابه تاريخ علماء الأندلس،

لكل هؤلاء، انظر تراجمهم في مواضع أسمائهم.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

كان له أثره الواضح في إحداث نقلة علمية مهمة في الأندلس. وكان العامل الأهم في هذه النقلة أن الأمير هشاما، ممثلا للسلطة الراعية، لترسيخ التوجه الفكري للأندلس، كان قد بادر مرحبا بتبني أفكار هؤلاء العلماء، ومن ثم توسيع دائرة تمازج فكرهم مع توجهاته. وقد أوجز القاضي عياض السبتي، صاحب ترتيب المدارك عن صورة هذا التلاحم بقوله: "وأما أهل الأندلس فكان رأيها مذ فتحت على رأي الأوزاعي، إلى أن رحل إلى مالك زياد بن عبدالرحمن وقرعوس بن العباس والغازي بن قيس ومن بعدهم، فجاءوا بعلمه، وأبانوا للناس فضله، واقتداء الأئمة به، فعُرف حقه، ودُرس مذهبه، إلى أن أخذ أمير الأندلس إذاك هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الناس جميعا بالتزامهم مذهب مالك، وصير القضاء والفتيا عليه، وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك، رحمه الله تعالى.<sup>(٨٢)</sup>

إن البحث لا يهتم الخوض في الأسباب التي أدت بهشام إلى تحويل مذهب أهل الأندلس من مذهب أهل الشام "الأوزاعية" إلى مذهب الإمام مالك "المالكية" فالحديث في هذا الأمر متشعب، ويورد المحدثون لدواعيه أسبابا كثيرة.<sup>(٨٣)</sup> ولكن إذا ما كان هناك سبب ينبغي الوقوف عنده هنا، فإن ذلك يكون في الإشارة إلى الصورة المثلى، فضلا عن العلم الرفيع، التي قدم بها شيوخ المالكية أنفسهم لأهل الأندلس، وعلى رأسهم الأمير هشام نفسه. ونظرا لأن أولئك الشيوخ عزوا أصول الصورة المثلى التي ظهرها بها علما

(٨٢) القاضي عياض السبتي، ترتيب المدارك، ١: ٥٥؛ وقد توهم المقرئ في نفعه (٣: ٢٣٠)، وجعل تحول

الأندلس إلى المالكية في دولة الحكم بن هشام بن عبدالرحمن؛ والأصح هو ما أثبتته السبتي وغيره.

(٨٣) انظر كمثل: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس (الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية،

د.ت.)، ١٢١-١٢٤؛ وانظر كذلك: محمد عبدالحاميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس (القاهرة:

دار الفكر العربي، ١٩٨٢م)، ٨٦؛ كذلك: مصطفى الهروس، المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية

القرن الثالث الهجري: نشأة وخصائص (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ٣٧-٤٢.

وخلقا إلى اقتدائهم بشيخهم الإمام مالك نفسه، فإن هذا الاعتراف لم يكسبهم احترام أهل الأندلس فحسب، بل تجملت صورتهم، وكذلك صورة شيخهم عند أمير الأندلس نفسه. ونرى صورة ذلك في قول هشام، عندما علم برفض زياد بن عبدالرحمن القضاء، امتثالا منه لمواقف الإمام مالك نفسه، في رفضه تولي القضاء، وتماشيا أيضا مع ما اعتاد عليه جل شيوخ المالكية، من كراهيتهم التهافت على المناصب، بقوله: "ليت الناس كلهم كزياد، حتى أكفي أهل الرغبة في الدنيا."<sup>(٨٤)</sup> وتكررت صورة عمق احترام هشام لعلمائه وإجلاله لهم في موقف آخر، مع قاضيه مصعب بن عمران، برغم أن ابن عمران لا يعد من المالكيين، رغم ثبات العلم عليه؛ فقد كان اشتكى منه أحد رجال هشام من أن القاضي سجل عليه في داره التي كان يسكنها وإخراجه منها، فكان رد هشام عليه: "وماذا تريد مني؟ والله لو سجل عليّ القاضي في مقعدي هذا، لخرجت عنه."<sup>(٨٥)</sup>

في مقابل القبول الذي لقيه علماء الأندلس عموما، وبالأخص شيوخ المالكية من هشام، لقد كان لهؤلاء العلماء دور أيضا أثر في تعزيز التلاحم الذي اتصفت به علاقتهم معه؛ فشيوخ المالكية كان لهم بدورهم أيضا أثرهم الأعمق، ليس في مد جسور التفاهم الذي ساد بينهم وبين الأمير فحسب، بل في مد الجسور بينه وبين الإمام مالك نفسه، وتقريب المسافة بين قرطبة والمدينة؛ مما أدى بالأمر - ما رأينا - أن يأخذ بمذهبه في الأندلس. ويسمى القائلون بهذا الرأي غير فقيه مالكي، لاسيما الذين عرفوا لهم رحلة ثانية إلى المدينة، في أيام الأمير هشام، ومنهم زياد بن عبدالرحمن، ويحيى بن يحيى الليثي؛ ولكن الأرجح أن الأول كان له الدور الأوفى، في عملية التقريب هذه، إذ يؤكد

(٨٤) القاضي عياض السبتي، ترتيب المدارك، ١: ٣٥٠ - ٣٥١؛ وقد اختلف موقف هشام هذا من مصعب ابن عمران الذي عزم عليه هشام عزمًا شديدًا بلغ به الحد أن يقارن نفسه بأبيه عبد الرحمن قائلا: "إنه إنما منعك من قبول القضاء من أبي الأخلاق التي كانت له، وقد عرفت أخلاقي"، ولا يمكن فهم الفارق بين الموقفين بسوى الاحترام الفائت الذي كان هشام يكنه لشيوخ المالكية من أمثال زياد ومصعب بن عمران، انظر: الحشني، قضاة قرطبة، ٢٥.

(٨٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢: ٦٦.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

على ذلك ابن القوطية قائلًا: "ورحل بعد عام من ولايته - هشام - زياد بن عبدالرحمن اللخمي، فقيه الأندلس، جد بني زياد القرطبيين، إلى الشرق، فلما صار بالمدينة، ووصل إلى مالك بن أنس، رحمه الله، سأله عن هشام، فأخبره عن مذهبه، وحسن سيرته، فقال مالك: ليت الله زين سمتنا بمثل هذا؛" <sup>(٨٦)</sup> والأمير هشام - من جهته - عندما نُقل إليه ما قاله مالك بادل مالك أمانيه بقوله: "عالم دار الهجرة يكفيننا." <sup>(٨٧)</sup> هذا ولا يستبعد أن الليثي أيضا قام بدور مماثل ومعاصد في هذا الشأن، فهو أيضا من الذين أحرزوا القبول والاحترام من مالك والأمير هشام على حد سواء. إن الأمانى المتبادلة بين مالك وهشام، لم يكن في واقع الأمر، سوى مقدمة لإعجاب مزدوج تالٍ، ومن ثم تقدير واعتراف، كل بما لدى الآخر لاحقا. فمن جانب هشام، فضلا عن تقديره المتنامي لمالك، فإن لفقهاء المالكية أيضا كان لهم نصيب في هذا التقدير. وما يروى أن هشاما "مر بابن أبي هند، الذي سماه مالك بحكيم الأندلس، فقام إليه وحياه؛ فقال له هشام: "لقد ألبسك مالك ثوبا جميلا،" <sup>(٨٨)</sup> وتكرر الأمر نفسه في المعاملة المميزة، والاحترام الذي ناله يحيى بن يحيى الليثي من هشام؛ مما أبانه المقري

(٨٦) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ٦٢، وقد وردت العبارة مختلفة عند الآخرين، ليت الله زين موسمنا بمثل هذا (المقري، ١: ٣٣٧)، أخبار مجموعة: وودت أن الله ... ، ١٠٦.

(٨٧) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي المقدسي، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩م)، ٢٣٧. ويورد المقدسي صورة ما حدث على النحو التالي: وفشا مذهب أبي حنيفة رحمه الله بالمغرب؛ قلت: فلم يفتش في الأندلس، قالوا لم يكن بالأندلس أقل منه ههنا؛ ولكن تناظر الفريقان يوما بين يدي السلطان؛ فقال لهم: من أين كان أبو حنيفة؟ قالوا من الكوفة؛ فقال ومالك؟ قالوا: من المدينة؛ قال: عالم دار الهجرة يكفيننا. فأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة، وقال: لا أحب أن يكون في عملي مذهبان. ويضيف المقدسي قائلًا: وسمعت هذه الحكاية من عدة مشايخ الأندلس، والأرجح أن السلطان الذي يقصده المقدسي هو الأمير هشام؛ لأن تحول الأندلس إلى مذهب مالك مثبت عليه وعلى عصره.

(٨٨) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ٦٣؛ والمعروف أن الفقيه ابن أبي هند، هو من الفقهاء الأندلسيين، ممن درسوا على مالك.



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

بقوله: "لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام، مما أُعطي يحيى بن يحيى من الخطوة، وعظم القدر، وجلالة الذكر." <sup>(٨٩)</sup> ولعل المثال الأوضح لمظاهر إجلال هشام لشيوخ المالكية، واستثنائهم عن غيرهم في الاعتبار، تمثل في عدم إجبارهم على توالي المناصب الرسمية، لاسيما القضاء، واحترام رفضهم لها.

من جانب الإمام مالك، فإن حماسه لهشام وللأندلسيين لم يكن بأقل من حماس الأندلسيين وأميرهم له، ففضلا عن الرغبة الصريحة التي أبدتها لأخذ هشام بمذهبه كمذهب للأندلسيين، فإنه أظهر ودا فائقا لطلابه الأندلسيين الذين وفدوا إلى المدينة للجلوس في مجلس علمه، وتمثل ذلك في حسن الاستقبال والاهتمام والعناية والإكرام في إغداق الألقاب لهم، فهو مثلا منح عيسى بن دينار لقب فقيه الأندلس، وابن أبي هند لقب حكيمها، ويحيى بن يحيى الليثي لقب عاقلها. <sup>(٩٠)</sup> ولم يقف مالك عند إظهار الود والتقدير لطلاب الأندلس، بل اعترف مداحا بعلم العلماء الأندلسيين الذين هم ليسوا من طلابه، كناية على أنه كان على علم بما كان في الأندلس من العلم والعلماء، فهو مثلا ألمح إلى علم عالم أندلسي بقوله: "تكاد أحاديث بن عمران - مصعب - أن تكون سيرا؛ <sup>(٩١)</sup> وتشير الشواهد إلى أن علاقة مالك بطلابه الأندلسيين لم تتوقف بعد إنهاء هؤلاء دراستهم معه ومغادرة مجلسه، بل تواصلت الصداقة والتألف وقبول الهدايا، بعد

(٨٩) المقرئ، نفع الطيب، ٢: ١١. ما يقوله المقرئ عن الليثي لا يمكن حصره في هشام فحسب، فهو نال

الخطوة الكبرى، أيام حفيد هشام عبدالرحمن الأوسط، ولكن للقول نصيب منه لعصر هشام أيضا.

(٩٠) أبو الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس (القاهرة: الدار المصرية

للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ١٨٠؛ الحشني، قضاة قرطبة، ٢٧.

(٩١) الحشني، قضاة قرطبة، ٢٧.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

عودة هؤلاء إلى الأندلس ؛ فالمقري يشير إلى أن يحيى بن يحيى الليثي أرسل إلى مالك سفينة مملوءة بالتين الأندلسي المجفف!<sup>(٩٢)</sup>

ومن الوقائع المتداخلة مع تناغم العلاقة بين الإمام مالك في المدينة وشيوخ المالكية في الأندلس ، أن سيرة شاعر الأندلس عاصم بن زيد التميمي ، المعروف بأبي المخشى ، والذي سبق لنا التعرض إلى بعض سيرته ، يدخل طرفا في تبيان مدى التواصل الذي كان قد بلغ مداه بين المدينة والأندلس ، وغدا كل طرف ملما بما لدى الطرف الآخر ، وتفصيل القصة يشرحها ابن الخطيب قائلا : "إن قصة الذي قطع هشام لسانه الذي نبت لاحقا ، لما بلغت مالك بن أنس ، أشار إليها في فتواه في التآني بديّة اللسان طمعا في نبتها ، وقال يتأني بالحكم عاما ، فإن نبت أو شيء منه ، عمل في ديتيه بحسب ذلك ، فقد بلغني أن رجلا بالأندلس نبت لسانه أو أكثره بعدما قطع ، فأمكنه الكلام."<sup>(٩٣)</sup>

بعد عرض المعطيات الآتفة ، لعله مناسب الآن العودة إلى السؤال الذي بدأ به فصله الحالي ، وهو هل كان هشام في محل الآمال التي عقدت عليه ، حينما فضله أبوه لولاية عهده ، وهل استطاع أن يحقق للأندلس ما أريد منه أن يحقق ؟ ومن ثم الإجابة لهذه التساؤلات.

من جملة الأسباب التي طرحت ، كان الجانب الفكري ، وهو الجانب الأهم في المفاضلة التي تمت بين هشام وأخيه سليمان ؛ فهشام بما عُرف عنه من ميل للعلم والعلماء بدا في نظر عبدالرحمن كأنه الأنسب والأقدر لتوجيه الأندلس لوجهتها الفكرية ، ويمنحها

(٩٢) المقري ، نصح الطيب ، ١ : ١٨٠ ؛ ويورد المقري سببا لذلك ، كما يشير إلى أن الهدية وصلت المدينة بعد وفاة مالك.

(٩٣) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، ط ٤ (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ، ٢٣٢ - ٢٣٣.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

نفحة العلم التي لم تسعف أيام عبدالرحمن من أن ينفحها للأندلس بنفسه ، كما كان يرغب في ذلك. ولقد أبانت خلاصة استعراض أعمال هشام وجهوده في هذا الشأن ، من خلال إمكانياته الشخصية ، والانتفاع من العوامل المساعدة التي تهيأت له ، أنه قد نجح ليس في توجيه الأندلس صوب دروبها العلمية فحسب ، بل تمكن ، بحماسة وقدرته على التفاعل ، من قطع قدر ليس بقليل من الأشواط في هذا المسار.

البحث في التذكير بالإنجازات التي حققها عبدالرحمن لدولته وللأندلس ، وبالتلميح للنواقص التي حالت ظروفه دون إتمامها ، يمكنه القول إن الآمال المزدوجة التي عقدت على هشام في الإبقاء ، ومواصلة إنجازات أبيه أولا ؛ ومن ثم سد ما نقص منها ثانيا ، قد تحققت أيضا ، وأمكن تلمس شواهد لها ؛ فهشام نجح في المحافظة على تراث أبيه السياسي والعسكري أولا ، ثم تمكن من أن يسد نواقصها بالإنجازات العلمية المهمة التي حققها في عصره.

لقد حقق عبدالرحمن وحدة الأندلس بجهد عانى منه طويلا ، كما حقق بإقامته دولته استقلال الأندلس. ولا غرو أن ذلك كان إنجازا باهرا ومرصيا ، بالقياس إلى زمنه ، بيد أنه ، ومع ذلك ، لم يكن عبدالرحمن قادرا على بناء دولته داخليا ، بسبب الحروب والمناهضات التي لم يرتح من مواجهاتها إلا أياما خلال حكمه الطويل ، كما قيل. ورأى عبدالرحمن في محنته تلك ، وبمنظار الفاحص لحاجات دولته ، أن هشاما ، بما توافرت فيه من شروط ، هو من يكمل المسار من بعده. ونجاح هشام في تحقيق ما كان مأمولا ومطلوبا منه ، يمكن قياسه من هذا المنظور ؛ فهو بإعلانه المالكية مذهبا للدولة كان يعلن عمليا الاستقلال المذهبي لدولة الأمويين ، ويكمل بذلك عقد الاستقلال السياسي الذي حققه عبدالرحمن. وبصهر هذين الإنجازين ، السياسي والمذهبي ، في إنجاز واحد ، يمكن القول عندئذ ، إن الأندلس قد حققت استقلالها الكامل كدولة شاملة ، إذ تمكنت في تلك

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

المرحلة المبكرة من عمرها من إرساء القاعدة السياسية والفكرية الصليبتين اللتين اعتمدت  
قاعدة الدولة عليهما وازدهرت بهما حضارة الأندلس فيما بعد.

افتتح البحث بالتأكيد على الضرر الذي يصيب التاريخ من قطعه إلى مدد قصيرة؛  
مما يفقده هيئته ويصعب التحقق من أسبابه، والتيقن من نتائجه. ودعي كبديل لذلك إلى  
مد مدد التاريخ ما أمكن، وذلك للفائدة المتحققة منه. وللربط بين هذه الدعوة وبين  
التاريخ كحدث، طرح البحث الجمع بين عصرين أندلسيين، غالبا ما درسا بانفصال عن  
بعضهما، وهما عصر عبدالرحمن بن معاوية، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس،  
وعصر ابنه هشام، كنموذج ينبغي دراستهما كعصر واحد، وذلك للتداخل القوي  
بينهما، وللارتباط المحكم بين جوانبهما، يمثل فيهما قضية ولاية العهد محوره الأساس.

لقد بنى البحث حجته في الكيفية التي تعامل بها عبدالرحمن بن معاوية (الداخل)  
مع مسألة ولاية العهد، على الشعور المتنامي لديه، بأن دولته، على الرغم من صلابه  
قاعدتها السياسية والعسكرية، كانت لا تزال بعيدة عن اكتمال أركانها، كما كانت تمليه  
عليه تقديراته الشخصية. فهو وإن حقق لها النشأة وإخضاع الأعداء، إلا أن الدولة  
المثلى، في نظره، كانت ما تزال ناقصة الأركان، وبعيدة عن الأسس الكاملة التي تقوم  
عليها الدولة، والنواقص لا تكتمل إلا عن مزاجية إنجازاتها العسكرية مع تطلعاتها  
الفكرية، وبمعنى آخر مزاجية "القلم والسيف"؛ فعبدالرحمن الداخل لم يكن، في واقع  
الأمر، ينظر إلى إنجازاته سوى أنها كانت محققة لجانب السيف في تلك المعادلة؛ كما كان  
يشعر بذلك اطرادا كلما قدم العهد به، والزمن بدولته. ولذلك فإن الشعور تزايد عنده  
بأن الوقت لن يسعفه لمزاجية إنجاز السيف بالقلم. ومن هنا فقد وجه أنظاره إلى ولديه

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

المؤهلين لهذا الأمر - سليمان وهشام - لترشيح من تبدو فيه المؤهلات لتحقيق هذا الأمر.

لقد أحرز هشام هذا الاختيار متجاوزا به أخاه الأكبر سليمان ؛ وذلك لتوافق ميوله وتوجهاته مع رؤية عبدالرحمن الخاصة لما هو مطلوب من حاكم الأندلس من بعده. لقد كان هشام راعي قلم ، والقلم هو ما كانت الأندلس في حاجة إليه بعد عبدالرحمن. إن محاولة البحث في الربط بين عصري عبدالرحمن وابنه هشام ، مكّنه ، في المقام الأول ، من تفهم الأسباب التي أدت إلى إحراز هشام اختيار والده ، والوقوف أيضا على الظروف والملايسات التي أوصلت هشاما إلى حكم الأندلس . ثانيا ، وفي هذا السياق ، ناقش البحث خلفيات انتقال الحكم ، وتوصل إلى أنها لم تعتمد ، كما أظهرتها الروايات التاريخية طويلا ، على مصادفات وتعاملات غامضة ، بل على خطة موضوعة محكمة ، أمكن من خلال استنطاق رواياتها الاستنتاج بأن الانتقال لم يكن إلا تنويجا لتدابير أحكم رسم مساراتها ، وأن هشاما لم يفز بالترشيح أولا ، وبالحكم تاليا ، إلا لأنه كان المعني بالأمر ، وإن لم يتوضح المتابعون غوامضه.

لقد كانت قضية استحقاق هشام لتولي الإمارة في الأندلس ، من بعد والده ، قضية لم يكتف البحث بإثارتها فحسب ، بل جعلها نقطة محورية ، واستعرض البحث الشواهد المتعلقة بالقضية لدعم النقاش. إن مركزية هذه النقطة تحديدا ، كانت وسيلة ساعدت إلى استخلاص نتيجة أن أهلية هشام لإحراز الترشيح لم تكن قاصرة على توافق صفات شخصية فيه ، بل تطلب الأمر توافق الظروف السياسية والفكرية على حد سواء.

النتائج التي أمكن طرحها ، ألزم البحث بتصوير معيار يحدد به تقويم نجاح هشام فيما أوكل إليه من مسؤوليات ، ولقد أبانت الشواهد التي طرحت من الخلاصة ، أن هشاما كان فعليا وعمليا ناجحا في هذا المضمار أيضا. وقد قيس نجاحه بتمكّنه ليس من

عبدالغفور بن إسماعيل روزي

إعطاء الأندلس الجرعات الفكرية المنشطة لبدنها فحسب، بل في إعطائها البلسم المقوي لها للاستمرارية والتواصل. وكان تحول هشام إلى المذهب المالكي حجر الزاوية في هذا الأمر؛ فالمالكية منذ الأخذ بها غدت القاعدة التي تركز عليها وحدة الأندلس الفكرية، ومصدر دعامة للوحدة السياسية التي حققها عبدالرحمن، ومن تعاضد العصرين وتداخل الإنجازين، كما خلص إليه البحث، وضعت للأندلس القاعدة الحصينة التي ارتكزت عليها في عصورها القادمة؛ كما أن محاولة الجمع بين عصري الداخل وابنه هشام فتحت للبحث مجالا رحبا لتفهم أسس العناصر الجامعة لهذين العصرين.

**Hisham Ibn Abdurrahman I “ad-Dakhil” and the Reasons for His Succession to the Rule Following His Father: An Analytical Study of the Historical Resources Relating to Succession in the Early Umayyad Era in al-Andalus**

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة

**Abdulghafour I. Rozi**

*Associate Professor, Department of History,  
College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia*

**Abstract.** The paper sheds light on the issues surrounding Hisham Ibn Abdurrahman ad – Dakhil earning the designation of his father as his successor, It is taken to be an applicable example of the benefits resulting from dealing with events of history with temporal comprehensiveness. Henceforth, the arguments are presented in the following topics:

1 – Tracing the scattered information from historical sources and studying it analytically in an attempt to reach the reasons that led ad-Dakhil to favor Hisham as a successor over his eldest son Sulayman.

2 – The paper then follows personal differences as registered about the brothers (Sulayman and Hisham) with respect to personal inclinations and abilities. Simultaneously, the paper follows signs of changes registered, as time went by, in ad-Dakhil's state. By this, attempts are put forward to find signs of conformity between personal orientation and the general condition of the state, and conclude that Hisham's earning the designation from his father came only by virtue of personal abilities.

3 – Lastly, the paper evaluates Hisham's rule with respect to the hope and expectations regarding him. It affirms his success by exhibiting evidence indicative of his virtues. and concludes that Hisham possessed the ability to move on with his father's state to its desired path, and was indeed successfully able to set the foundation of future Umayyad rule in al-Andalus.

عبدالغفور بن إسماعيل روزي



هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة